جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

شعر ابن عنين

دراسة فنية موضوعية

إعداد :

ميسر سليم الشورة

إشراف :

شفيق الرقب

السنة :

٢٠٠٤

الجامعة :

جامعة مؤتة

كلية الآداب

شكر وتقدير

أقدم خالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور شفيق الرقب الذي أولى هذا البحث رعايته منذ أن كان فكرة إلى أن استوى بحثًا فلم يدّخر وسعاً في توجيـه عثراتـي والأخذ بيديّ إلى سبل الصواب فكان لإرشاداته السديدة ولمساته الدقيقة أكبر الأثـر على هذه الدراسة وصاحبتها، وكان مثال المعلم الصبور والأب الحاني.كما يطيـب لي أن أتوجه بجزيل الشكر والتقدير إلى أساتذتي الكرام الأسـتاذ الـدكتور محمـد المجالي، الدكتور زايد مقابلة، الدكتور خليل الرفوع، الذين كرمـوني بقـراءة هـذا البحث ومناقشته وإغنائه بآرائهم وإرشاداتهم القيمة.

ميسر سليم الشورة

الملخص

شعر ابن عنين دراسة فنية وموضوعية

ميسر سليم الشورة

جامعة مؤتة،2004

فقد تناولت هذه الرسالة بالدرس والتحليل شعر واحد من كبار شعراء الشام زمن الحروب الصليبيَّة، وبيَّنت إلى أيّ مدى تأثرت شخصية الشاعر وشعره بأحداث عصره وحركة المجتمع الشاميّ آنذاك.

فقد جاء شعر الجهاد والمدح لديه تعبيراً عن إحساسه بالقضايا الكبرى التي كانت تشغل الأمة في عصره، ولا سيَّما الجهاد ضدَّ الفرنجة. ومن ثم غلبت على هذا الشعر المعاني الدينية، وصور التغني بالبطولة والأمجاد الحربيَّة... دون أن يغفل الشاعر الحديث في سياق مدحه عن همومه الذاتيَّة.

وعبَّر شعر الهجاء والنقد الاجتماعي عن نظرة غير راضية لكثير من مظاهر السلوك الاجتماعي والسياسيّ في عصره، لذا فقد تعددت النماذج البشرية التي هجاها ابن عُنين لعلّه بهذا الهجاء يوجه أنظارها وأنظار الناس، إلى أنماط من السلوك الذي يراه الشاعر غير قويم.

وسكب ابن عُنين في شعر الغربة والحنين مواجده الشخصية وآلامه الذاتية بسبب نفيه في بلاد الشام، وتنقله في البلدان، وهو شعر يعبِّر عن تجربة فيها قدر طاغٍ من الحسّ الإنسانيّ المرهف. ولم يخرج ابن عُنين في مراثيه عن المألوف من معاني الرثاء وأفكاره في الشعر العربي.

ورصد ابن عُنين في شعره كثيراً من مظاهر الحياة اليوميّة، ولاسيّما في شعر الوقائع والمحاضرات. إنّ شعر الألغاز، يعبّر في بعض جوانبه عن رغبة في التسلية والإمتاع.

أما من الناحية الفنيَّة فقد التزم ابن عُنين، ببناء القصيدة العربية التقليديَّة، غير أنَّه طوَّع هذا البناء للتعبير عن تجربته الخاصة. كما كَثُرت في شعره المقطوعات القصيرة ولا سيَّما في شعر الهجاء، وهي مقطوعات تصوِّر وثبات نفسه المتحررة وتعبِّر عن رفضهِ بصورة موجزة مكثَّفة.

وقد اتسم شعره بالبساطة والسهولة والاقتراب من اللغة المتداولة، والشعبية في التعبير، وخاصة في شعر الهجاء والنقد الاجتماعي. إنَّ الصورة لديه سهلة بسيطة لا تقوم على التعقيدات البلاغية، وهي مستمدّة من مشاهدات الشاعر وبيئته.

وأخيرا فإنّ هذه الدراسة كشفت عن شاعر شامي شديد الإحساس ببيئته وعصره ولا سيّما الجوانب السلبية فيها.

Abstract

Artistic and subjective study of Ibn Onein poetry

Mysar Salem Al-Shwarah

Muta University.٢٠٠٤

This paper addresses with analysis and study the poetry of one the greatest poets in AL-Sham (Syria) during Crusades.

And it made clear to what extent the poet character and his poetry were affected by his era events and social motion in AL-Sham then.

His poetry of AL-Jihad and compliment expresses his feeling about great affairs that bothers the nation during his era, specially AL-Jihad against Franks and his poetry was dominated by religious meaning , the images of heroism , and war like glories with out napping talking about himself cares withen the context of his compliment.

Satire and social criticism expresses a non-content view about that time. Therefore, there were many human styles people to many types of behavior, which he regards as not straight forward.

Ibn Onein clarify his own suffering and affections in the poetry of affection and alienation. That was because of his exile from AL-Sham and traveling between many countries. That was a poetry about an experience of a great deal of human feeling.

Also in his elegies he has an ordinary meanings and ideas as it was in Arab poetry.

Ibn Onein wrote about many of daily life aspects mainly in his poetry about events and lectures but his poetry of riddles expresses his desire for entertainment and enjoyment.

But regarding the artistic aspect he was committed to traditional style of Arabic poem and used it to express about his own experience.

There are many short poems specially poems of satire which clarify the skips of his contumacious self and express his rejection abstractly.

His poetry was characterized with simplicity, easiness, and its approach to deliberated language and popularity in expression. This is in poetry of satire and social criticism in particular.

Also the image that he used is simple and easy to understand and a way from aphetic complexity taken from his own view of his environment.

I could say at last that this study has revealed a bout a poet from AL-Sham (Syrian poet) who has a great sense of his environment and era particularly the negative aspects of it.

الفصل الأول

الحياة السياسية والإجتماعية

1.1. المقدمة

لقد ازدهرت الحركة الأدبية في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، وشهدت تكاثر العديد من الشعراء المشهورين والمغمورين، ومن هؤلاء الشعراء ابن عُنين، لذا فإنَّ هذه الرسالة ترمي إلى دراسة حياة هذا الشاعر وشعره من الناحيتين المضمونية والفنية، بالإضافة إلى العوامل التي وجّهت شعره وأثرت في شخصيته.

وتتمثل أهمية هذه الدراسة في الكشف عن شاعر لم تتناوله - في حدود اطلاعي- دراسات علمية سابقة، باستثناء ما كتبه عمر موسى باشا في كتابه (الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)، وقد درسه ضمن دراسة تناولت مجموعة كبيرة من شعراء تلك العصور، ولم يستقص جوانب شخصيته وأدبه وفنه، ودراسة أخرى أعدتها أسماء أبو بكر محمد بعنوان (ابن عُنين حياته وإبداعه الشعري)، وهي دراسة انطباعية لم تهتم بالتوثيق العلمي، واقتصرت على إيراد الأشعار دون تحليل.

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة وأهدافها أن تستفيد من مناهج عدة فقد أفادت من المنهج النفسي في دراسة عناصر البناء والتكوين في شخصية ابن عُنين، ومن المنهجين الاجتماعي والتاريخي في دراسة العوامل التي وجّهت شعره، وأثرت فيه، ومن المنهج الجمالي في دراسة القضايا الفنية في شعره.

وقد استقيت مادة هذه الدراسة من مصادر متنوعة أهمها ديوان الشاعر، تتلوه طائفة من المصادر التي تتصل ببلاد الشام والقرن السادس الهجري، من مثل كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، وكتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وكتاب (مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب) وكتاب (الكامل في التاريخ)، وغيرها من الكتب التي سيجدها القارئ مثبتة في ثنايا هذه الدراسة.

2.1 .الحياة السياسية والاجتماعية

عندما انتصف القرن السادس الهجري، كان قد استقر أمر نور الدين زنكي وملك الشام، فواصل الجهد الذي اختطه والده عماد الدين، فعمل جاهداً في تنفيذ سياسته لمواجهة الغزو الصليبي، وهي سياسة تقوم على أمرين رئيسين هما:-

1) توحيد البلاد الإسلامية: بلاد الشام والجزيرة، وتوحيد مصر والشام
2) جهاد الفرنجة.

فعلى المستوى الأول، عمل على مراسلة الحكام الذين لم يكونوا مستجيبين لمبادرته دائمًا[1]، ولكنه تمكّن بعد عدة محاولات من ضم دمشق إلى أملاكه سنة 549هـ، بعدما ظهر من حكّامها مواقف مناهضة لجهوده [2].

ثم بدأ بعد ذلك بتجهيز جيوشه، وأخذ يتحين الوقت المناسب ليحقق ما يخطط له فوجد في استشارة الوزير المصري (شاور) [3] به سنة 558هـ فرصة لبدء التخطيط لهذه الغاية، ضد منافسه ضرغام[4]، حيث سرعان ما قام بتوجيه عدد من الحملات.

بقيادة أسد الدين شيركوه [5] يستطلع الوضع هناك، وينتصر لشاور حيث تم له النجاح بعد ثلاث حملات في هذه المهمة، فتمكن من قهر الفاطميين.
" وكان فتحًا جديداً لمصر، وحفظاً لسائر بلاد الشام"[6].

بيد أنه ما لبث أن يجلس على كرسي الوزارة في مصر حتى وافاه الأجل المحتوم سنة 564هـ، فخلفه في تسلم الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الذي كان قد رافقه في حملاته إلى مصر.

وقد كان لأحوال مصر الفاطمية، وما يتخللها من نزاعات وصراعات سياسية ووزارية متكررة، أثر في دفع نورالدين إلى التفكير في ضمّها إلى دولته وبذلك يكون نورالدين زنكي استطاع أن يضم مصر إلى أملاكه.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى يقوم صلاح الدين بأمر من نورالدين بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي، وإقامتها للخليفة العباسي في بغداد.

وهذا مما يدل على نهاية حكم الدولة الفاطمية في مصر [7] وقد كان لهذه الخطوة أثر كبير في تكثيف جهود القطرين ليقفا متماسكين معاً في صد العدوان.

ويقتضي المقام إلى الإشارة إلى بعض ما قام به نورالدين من أعمال جهادية تجاه الصليبيين، ففي سنة 541هـ استرد الرَّها التي استغل الصليبيون فرصة مقتل عماد الدين في السنة نفسها، فتمكنوا من الاستيلاء عليها، وفي سنة 544هـ أوقع بهم هزيمة نكراء في (إنَب) [8].

فقد استطاع أن يحقق انتصارات كبيرة في المعارك التي خاضها مع إمارة إنطاكية التي كانت تشكل خطرًا كبيرًا على حلب، فحرّر معظم الأرض الواقعة شرقي نهر العاصي.

كما استطاع نورالدين أن يوجه بعض عملياته العسكرية نحو إمارة طرابلس واستعادة حصن العريمة سنة 543هـ.

أما مملكة بيت المقدس فقد اتخذ إزاءها – بادئ الأمر – موقفاً دفاعياً فعقد ملكها هدنة لمدة سنة، إلاّ أن الصليبيين أخلفوا العهد، فأدبهم نورالدين وكسرهم كسرة عظيمة سنة 552هـ.

وظلت جيوش نورالدين تقارع الصليبيين في بلاد الشام، فهاجمت مواقعهم وأرهقتهم، وأسقطت بعض قلاعهم.

وقد تابع نورالدين جهاده، ليطهّر سائر ثغور الشام من الاحتلال، "ورأى بثاقب بصره أن يهّيئ خطته لاسترجاع بيت المقدس، ورسخت هذه الفكرة جديًّا في نفسه " [9].

ولكن هذه الوحدة لم تلبث أن تعرضت لبعض التهديدات بعد وفاة نورالدين سنة 569هـ [10]، فقد اضطربت أحوال بلاد الشام، إذ استغل بعض المقربين من البيت الزنكي صغر سن ابنه، الذي لا يقوى على الحكم، وملك زمام الأمور.

لذا ارتأى صلاح الدين أن يتجهز لقصد بلاد الشام قبل تفاقم الخطر، فيقصد دمشق سنة 570هـ [11].

ويضطر تحت وطأة النزاعات مع الزنكيين إلى ملاقاتهم في موقعة قرون حماة سنة 570هـ[12] وألحق بهم هزيمة نكراء، ثم ينازلهم ثانية في معركة تل السلطان سنة 571هـ [13] فيهزمهم أيضًا.

وهكذا تمكّن السلطان الناصر صلاح الدين من دخول حلب وضمّها إلى أملاكـه سنة 579هـ[14]، وتعد مرحلة صلاح الدين من أغنى المراحل في زمـن الحـروب الصليبية فقد استطاع أن يقلّص حدود الممالك الصليبية.

ولم يتوان عن شن الهجمات على الصليبيين، وأحرز كثيراً مـن الانتصـارات عليهم وتمكّن من استرداد الكثير من معاقل الغزاة، وكان ذروة ما حققه النصر الذي ظفر به في معركة حطين الخالدة سنة 583هـ [15] التـي كانـت " مفتـاح الفتـوح الإسلامية وبها تيسّر فتح بيت المقدس "[16].

فقد طفق صلاح الدين بعد هذه المعركة، يصول ويجول بجنوده علـى الفـرنج حتى دوّخ بلادهم [17]إلى أن تم له استرداد بيت المقدس سنة 583هـ.

أقضّت هذه الانتصارات مضاجع الصليبيين، إذ إنه لم يبق بأيديهم من مملكة بيت المقدس إلاّ صور، ومن إنطاكية إلاّ المدينة نفسها وبعض الحصـون، ممـا جعلهـم يعدون لحملة صليبيّة ثالثة.

فخرجت الحملة بقيادة ملوك فرنسا وألمانيا، واستطاعت جحافل الفرنجة أن تصل إلى عكا فضربت حولها حصاراً عنيفاً، استمر ما يقارب السنتين، فبعد دفاع مجيـد اضطرت المدينة إلى التسليم سنة 587هـ[18].

ثم جرت بعد ذلك مساع للصلح بين الفريقين وعقدت هدنة عامة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر[19].

وبوفاة صلاح الدين الأيوبي في سابع عشر صفر سنة 589هـ[20] تاركاً وراءه دولة مترامية الأطراف، يدخل الصراع دورًا جديداً، إذ أن الوحدة التي عمل جاهـداً على تحقيقها، سرعان ما بدأت بالتفكك، بسبب ما دار بين أبناء البيت الأيـوبي مـن نزاعات ومشاحنات.

وكان الملك الناصر قد قسّم البلاد بين أبنائه في حياته فجعل الـديار المصـرية لولده العزيز عماد الدين، ودمشق وما حولها للأفضل نورالدين وهـو أكبـر أولاده والمملكة الحلبية لظاهر غازي غياث الدين، ولأخيه العادل الكرك والشـوبك وبـلاد جعبر وبلدان كثيرة في قاطع الفرات وحماة وأعمال أخرى معها للملـك المنصـور محمد بن تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الـدين

بين شركوه بن ناصر الدين، واليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب [21].

وقد كان لهذا التقسيم أثرٌ في فتح باب الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي، فاحتدمت الصراعات بينهم، ودبّ النزاع، واستشرى الخلاف، وتربّص العدو في الثغور وحاول استغلال هذا الوضع المتردي، وشرعوا يتسللون إلى داخل البلاد من أجل إعادة سيطرتهم مرة أخرى.

فانقسمت الدولة الأيوبية على نفسها بعد وفاة صلاح الدين، وجرت بين الأقارب والأبناء أحداث مؤسفة، فأصبحت مصر ودمشق وحلب والكرك وبعلبك وحمص وحماه مراكز الإمارات يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبي الذين تلقبوا بالملوك.

وخير ما قيل في ذلك المقام، قول القاضي الفاضل:

" أما هذا البيت فان الآباء فيه اتفقوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما في الحلية تشريقه وإذا بدا خرق ثوب فما يليه الا تمزيقه " [22]

ويمكن تقسيم الحقبة الزمانية بعد وفاة صلاح الدين إلى مرحلتين هما:

1) مرحلة نزاع الأبناء، وعمهم العادل، وهي تمتد من سنة 590هـ- 596هـ.

فهذه المدة القصيرة التي لم تتجاوز الست سنوات، مؤشر على مدى تفاقم النزاع والشحناء بينهم، مما جعل سيادتهم لم تعمّر طويلاً، فطمع كل منهم بالآخر بالإضافة إلى الدور الذي لعبه عمهم، فقد كان يحالف أحدهما على أخيه، فقد تحالف العادل والأفضل.

"وكان الأفضل علي ميالاً إلى حياة المتعة والطرب والشرب... ولهذا انتهز العادل ضعفه" [23].

ثم تأتي بعد ذلك:

2) سيادة العادل وأولاده، وهي تمتد من سنة (596هـ - 648هـ) وقد تمكّن العادل ثانية من توحيد الدولة الأيوبية، ونودي بالعادل سلطانًا على الشام ومصر.

فبلغه أن الأفضل والظاهر قد عزما على دخول دمشق، فخرج العادل من مصر بعساكره وتوجه إلى نابلس، وأرسل قسماً من عسكره، فدخلوا دمشق قبل وصول الملكين، وكان بدمشق الملك شرف الدين عيسى بن الملك العادل.

ولكن الأخوين ما لبثا إلا أن اختلفا فيما بسنهما، ورحلا عن دمشق، وبذلك دخل العادل دمشق، واستطاع أن يسيطر عليها.

وقد انتظمت للعادل الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية، وكانت فترة حكمه لبلاد الشام فترة عامرة بالأحداث الجسام، والوقائع الحربية.

وفي سنة 598هـ قسّم العادل البلاد في حياته بين أبنائه، فجعل بمصر الكامل محمد، وبدمشق والقدس وطبرية والكرك وغيرها من الحصون المجاورة ابنه المعظم عيسى، وجعل بعض ديار الجزيرة وميا فارقين وخلاط وأعمالها لابنه الأشرف موسى، وأعطى الرّها، لولده شهاب الدين غازي وقلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه، وهكذا تمت إعادة الجبهة الإسلامية المتحدة إلى ما كانت عليه.

أما العادل، فكان له الإشراف العام على جميع أنحاء البلاد وصار يتنقل في أملاك أولاده، ويعمل على وفاقهم (24).

وكأنه أراد بذلك أن يغيّر السياسة التي اتبعها صلاح الدين في تقسيم ملكه بين أبنائه.

لقد استطاع العادل أن يُعيد تنظيم دولته الأيوبية من جديد، حتى مرت الدولة الأيوبية بعد ذلك بتطورات سريعة، انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت قيادة العادل وأبنائه.

وقد نجح الأيوبيون في صد الصليبيين في حملتهم الخامسة، وذلك بسبب تعاونهم ووقوفهم صفًا واحدًا، مما جعلهم ينتصرون في دمياط، وبهذا النصر اكتسب الكامل نفوذًا جعله يفرض سيطرته.

ولما توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سنة 615هـ (25)، ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه واتفقوا اتفاقًا حسناً لم يجر بينهم من الاختلافات ما جرت العادة أن يجري بين أبناء الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر (26).

ولكن لم تمض سنوات على هذا الاتفاق، حتى تفاقم الخلاف من جديد بين الأخوة والأقارب، وطمعوا في أن يسيطر كل واحد منهم على دمشق والمدن الهامة الأخرى كحلب وحماة [27].

وفي سنة 626هـ تقدّم الملك الكامل مع إخوته نحو مدينة دمشق لمحاصـرة الملك الناصر داود فيها، فقطعوا عن دمشق أنهارها وقواتها، وحاصروها حيـث وصفه ابن الأثير بأنه اشد حصار وقع على دمشق.

ومن الطبيعي أن يزداد طمع الفرنجة في البلاد، بعدما لمسوا تشتت صـفوفهم وتفرّق كلمتهم، حيث قاموا بتوجيه حملة صليبية إلى مصر [28].

ومن الأحداث الهامة التي شهدتها هذه الفترة، تخريب بيت المقـدس وهـدم سوره سنة 616هـ على يد الملك المعظم عيسى، خوفاً مـن اسـتيلاء الصـليبيين عليـه [29]. ومن هذه الأحداث أيضا تنازل الملك الكامل[30] عن بيت المقدس، إثر هدنة عُقدت بينه وبين الفرنج.

وكان لموت الملك الكامل سنة 635هـ دور سلبي في تجديد الخلافـات بين أبناء البيت الأيوبي المتكررة، إذ دبّ النزاع في هذه المرة بين نجم الدين أيوب [31] وعمه الصالح إسماعيل فاستعان نجم الدين بالخوارزمية[32] الـذين عاثوا فساداً في البلاد، واستعان الصالح إسماعيل وحلفـاؤه مـن الأيـوبيين بالفرنج [33].

وهكذا كان حال الدولة الأيوبية في أواخر أيامها، حالة من الخلافـات والتمزق والمساومات المتكررة.

وقد كان هذا الوضع المتردي، كفيلاً بأن يضع نهاية لهذه الدولة التي لـم تعد قادرة على النهوض والمواصلة مرة أخرى.

الحياة الاجتماعية

شهد القرن السادس الهجري في بلاد الشام، اتجاهات اجتماعية متعددة غـذتها مجموعة من العوامل التي أثرث فيما بعد على جميع النواحي. ولعل من أهـم هـذه العوامل أثراً الغزو الصليبي، بالإضافة إلى ما كان يضمه المجتمع الكبير في بـلاد

الشام من عناصر متعددة، وكان من أهمها بالإضافة إلى سكان البلاد الاصليين، الأتراك والأكراد.

أما بالنسبة إلى سكان البلاد، فقد انتشرت قبائلهم في أنحاء متفرقة من البلاد وقد فقدوا سلطانهم السياسي خلال القرن السادس الهجري، ما عدا بني منقذ في شيزر.

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلوا عنصرًا فاعلاً في أحداث العصر، وشاركوا في جهاد الغزاة ... أيضًا العنصر الصليبي الذي كان على شكل جاليات صغيرة داخل المدن والقلاع، ولكنهم لم ينعموا بالاستقرار بسبب الهجمات الإسلامية عليهم (34).

مما أدى إلى انقسام المجتمع الشامي إلى حضر وبدو، فالحضر سكان المدن والقرى ،يعملون بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة وزراعة ، أما البدو فهم عشائر منتشرة في بادية الشام .

ووجدت بعض القبائل التي كانت تشغب على الدولة، وتهاجم قوافل الحجاج والتجارة، وتتعامل مع العدو وترشده إلى المسالك المؤدية إلى البلاد، مما جعل بعض الحكام يتعاملون مع هذه الفئة بالقوة حيناً وبالاستمالة حيناً آخر.

أما بالنسبة إلى الأتراك، فقد نوّهت المصادر بشجاعتهم وما قاموا به من جهاد ضد الغزاة.

وقد ترك هؤلاء لمسات واضحة على طبيعة الحياة الاجتماعية، حتى أن القوم أقبلوا على شراء الجواري الحسان... وتسربت الكثير من الكلمات التركية إلى العربية، واعُتمد عليهم في صد الغزاة.

وبمجيء الأيوبيين إلى بلاد الشام، بدأ عدد الأكراد يتزايد وقد أثبت هؤلاء شجاعتهم وبسالتهم في صدهم للغزاة، فتولوا زمام الأمور وذلك لِما ظهر منهم من كفاءة.

أما بالنسبة للصليبيين فقد أقاموا كيانهم السياسي في بلاد الشام على شكل إمارات منفصلة هي الرّها، وإنطاكية، والقدس، وطرابلس، وانبثق الإطار العام لحكمهم من هذه الإمارات.

ويبدو أن هذا النظام قد لعب دوراً مهماً في تركيزه في نفوس البيت الأيوبي فبعد وفاة صلاح الدين، انقسمت بلاد الشام إلى إمارات صغيرة يحكم كل واحدة منها فرد من أفراد البيت الأيوبي.

ربما تكون هذه بذور دفينة أُخذت من الصليبيين، أومن بعض آثارهم الواضحة في المجتمع الشامي، حيث عاثوا في البلاد فسادًا وخرابًا، وعانى أهلها من ويلات هذا الغزو، اضطر بعضهم إلى هجر بلادهم خوفًا من بطش العدو وبأسه.

وظهرت في المجتمع الشامي في هذا القرن، مذاهب وفئات دينية متعددة وكان المذهب السائد آنذاك هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد عمل الزنكيون والأيوبيون على نشر هذا المذهب، وذلك من أجل توحيد صفوف الأمة، واستقطابهم لتجنبهم الانقسامات المذهبية، التي تؤدي إلى ضعف المواجهة.

وقد عمل حكّام بلاد الشام جاهدين، لتحقيق هذه الغاية بوسائل متعددة فقاموا بإعمار المساجد والمدارس والبيمارستانات والخانات، وأوقفوا عليها أوقافًا كثيرة وقد نشط الوعّاظ في هذه المساجد، وهذا مما شجعه الحكّام.

ويذكر ابن الأثير بعض ما عمله نورالدين في هذا المقام:-

" بنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبني الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق، وبنى الخانكاهات في جميع البلاد وأوقف على الحج الوقوف الكثيرة..... وكان يكرّم العلماء، وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم ويجلس معهم، وينبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده" (35).

واهتم الزنكيون والأيوبيون بالتصوف السني وشجّعوا عليه، وقد تبوأ أهل السنة مكانة مرموقة في عهدهم، وأسهموا في حركة الجهاد سواء بالحث عليه أو بالاشتراك الفعلي.

ومما أثار دهشة ابن جبير في ذلك:

" أما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يُبصر " (36).

ومن الفئات التي ضمها المجتمع الشامي في القرن السادس الهجري، أهل الذمة من اليهود والنصارى، فقد أقاموا في الديار الإسلامية، وكفل لهم المسلمون الحماية، وكانت علاقاتهم حسنة مع المسلمين، حيث كانوا يتبادلون الزيارات وقد وصف ابن جبير كنيسة لهم في دمشق، ففي داخلها كنيسة لها عند الروم شأن عظيم البناء، تتضمن من التصاوير أمراً عجيبا تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار مرآها عجيب.

ولكن لابد من بعض الحساسّيات الدينية التي كانت تثور في لحظات التوتر فتحدث بعض المشاحنات بين اليهود والنصارى.

ويبدو أن العلاقات كانت بين الفئات العرقية في المجتمع الشامي مستقرة إلى حدّ ما على الرغم من بعض الخلافات التي لم تشكل خطراً على وحدة البناء الاجتماعي.

وقد وجد الرقيق الأوروبي سبيله إلى المجتمع عن طريق الحروب، حيث حوّلت هذه الحروب الآلاف من الأحرار عبيداً وكثر عددهم عن طريق التجارة.

" ومن أهم السلع التي تحملها سفن المدن الإيطالية إلى المشرق هي الأرقاء " (37)

ومما جلبته هذه الحروب أيضا، خضوع الناس إلى نظم اجتماعية، كانت نظماً طارئة أساسها الإقطاع، الذي ساد في العصور الوسطى.

مما أدّى إلى تقسيم الشعب إلى فئتين متباينتين إحداهما، الطبقة العليا التي تنعم بالرفاه ورقة العيش، وهي طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع، وكبار التّجار والأثرياء

والمقربين منهم، أما الطبقة الثانية فتضم فئات الشعب الفقيرة، التي كانت تعاني من الفقر والحرمان، وكانت تابعة للطبقة الأولى.

ومن الطبيعي أن لا يكون توزيع الثروة على طبقات المجتمع معتدلاً، مما يُعرض عامة الشعب إلى نوبات وهزات اقتصادية عنيفة تؤدي بالنهاية إلى مجاعات مخيفة. فهذه الظروف لا بدّ لها من أن تؤدي ببعض الناس إلى الالتجاء إلى ألوان الكسب غير المشروع.

إذ أصبحت هذه الظروف مواتية لظهور فرق أكثر نشاطًا من ذي قبل، فالحرامية اللصوصية ظاهرة ليست جديدة، وإنما طبيعة الحياة والنظم السائدة، أدت إلى نشاطها.

فكان لهذا النظام سلبيات كثيرة، أرهقت الشعب، فالأرض وما عليها ملك لصاحب الإقطاع، يتصرف بمملوكه دون رقيب ولا قانون إلا السلطان وطبقة القضاء والعلماء. وهؤلاء كانوا يتبعون السلطان في أغلب الأحيان في عدله وجوره [38].

وقد ساءت أوضاع طبقة الفلاحين، وذلك بسبب ما كان يفرض عليها من ضرائب، وما عانته من غارات صليبية استهدفت حرق زراعتها وتخريبها.

بالإضافة إلى ما لاقته في اعتمادها على الأمطار، فقد كانت تشح في بعض المواسم، مما يؤدي بهذه الطبقة إلى ضائقة اقتصادية. فارتفعت الأسعار وعمّ الغلاء في بعض الأوقات، دفع بالناس إلى القيام ببعض الفتن والثورات.

بالإضافة إلى ما تركته الأحوال السياسية المتقلبة من آثارٍ سلبية على طبيعة الحياة الاجتماعية.

فقد اشتدت موجة الغلاء نتيجة لتفاقم النزاعات بين بني أيوب. فيصف الذهبي ذلك بقوله:-

" كان الجوع والموت المفرط بالديار المصرية، وجرت أمور تتجاوز الوصف،.. فلو قال القائل: مات ثلاثة أرباع أهل الأقاليم لما أبعد، والذي دخل تحت قلم الحشرية في مدة اثنين وعشرين شهرًا.. وهذا نزرٌ في جنب من هلك بمصر والحواضر وفي البيوت والطرق ولم يدفن " (39).

فقد توالت أحداث طبيعية وكوارث متنوعة وهزات عنيفة، أودت بحياة بعض السكان، فانتشر الفقر والجوع والموت المفرط، حتى وصل بهم الأمر إلى أكل الأطفال والكلاب. إذ يصف أبو الفداء:

" وأُكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشوي الصغير والداه ويأكلانه "(40).

فانتشرت بين الناس عادات لا تُحمد، فكان الرجل يحتال على الفقير ليأكل قوته، ويقتل الرجل زوجته ويأكلها، وهلك كثير من الأطباء والذين يستدعون للمرضى، فيذبحونهم ويأكلونهم، حتى أن الأطباء مارسوا هذه المهنة على وجل وخوف.

فأصبح السلوك عندهم عادة اجتماعية يمارسونها، على الرغم من ضجر الحكام من ذلك.

" وقد صار أكلهم طبعاً وعادة، وضجر الحكّام من تأديبهم " (41)

وعانت بلاد الشام في القرن المذكور من أوبئة فتاكة، فجاء جراد وفاضت السيول والأنهار، فزاد خوف الناس، وانتشرت الأمراض التي، أهلكت كثيراً من الخلق.

" وصعب أمر المغسّلين والحفّارين.... لكثرة الموتى " (42).

وزاد الحال سوءاً حدوث بعض الكوارث البيئية والطبيعية كالزلازل (43) والحرائق (44)، وبعض الأوبئة الفتاكة (45).

فقد احترقت جيرون سنة 559هـ، وباب الساعات بدمشق سنة 562هـ. كما استغل الفرنج ظروف النزاع فأغاروا على المدن وشنّعوا بسكانها الذين اضطروا إلى تركها مكرهين.

وعلى الرغم من سوء الأحوال، فلم تخل مجالس بني أيوب من مظاهر الترف، فالحفلات التي كانت تقام في الزواج والمناسبات الأخرى، عكست جانبًا من ألـوان الثراء واليسر الذي نعمت به طبقة الملوك والأمراء.

فاتخذت بعض الاحتفالات طابعًا سياسيًا ، فعندما ولد للسلطان صلاح الدين ولداه الملك المعظم تورا شاه سنة 577هـ [46] والملك المحسن احمـد" اتصـل الفرح أربعة عشر يومًا [47].

وعلى الرغم من حسن سيرة بعض الحكّام، فهذا لا يعني استقامة الطبقـة الحاكمة طيلة الفترة، فقد بدت من بعض الحكّام تجاوزات لمست حيـاة بعـض الناس، فقد انتهز بعض الوزراء والقضاة بعض الفرص للاختلاس والسرقة.

لما ملك الصالح إسماعيل دمشق، ولىّ قضاءها رفيع الدين الجيلي الشـافعي فاتفق القاضي مع أحد الوزراء. " على المسلمين وكان عنده شـهود زور ومـن يدعي زوراً، فيحضر الرجل المتحول إلى مجلسه، ويحضر المدعي عليه بـألف دينار أو بألفين فينكر، فيحضر الشهود، فيلزمه ويحكم عليه، فيصالح غريمه على النصف، أو أكثر أو أقل، فاستبيحت أموال الناس " [48].

فالحياة لم تكن كلها تقوى وصلاح، فلم يعدم أهل الشام من وسائل الترفيـه فقـد كان في ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجاري.

" قد جمع أنواع أسباب الملاذ، ويجري فيه من الفسوق والفجور مـا لا يعُـد ولا يوصف " [49].

وشغف القوم بالصيد، حيث كانوا يخرجون في رحلات، وقد افرد أسامه بن منقذ في كتابه(الاعتبار)، حديثًا عن الصيد، صوّر فيه عناية بني منقذ وبراعتهم في هـذا المجال، كما ذكر مهارة عماد الدين ونور الدين في صيد الطيور والحيوانـات. [50] ولم يحرم الأمراء والقادة أنفسهم من ألعاب الفروسية، التي كانت منتشرة فـي ذاك الزمن من رماية، ولعب بالكرة وسباق الخيل.

اسمه ونسبه:

تكاد تجمع المصادر على انّ اسمه شرف الدين محمّد بن نصر الله بن مكـــارم بن الحسن بن عُنين الأنصاري، الدمشقي، الزرعيّ[51]، وأضاف بعضهم الكوفـــي، والحوراني[52].

ولد ابن عُنين سنة 549هـــ في دمشق [53] ونشأبها، غيـــر أنننـــا لا نملـــك أي معلومات عن حياته الأولى، ويبدو انه نشأ في أسرة فقيرة، نستدل على ذلـــك مـــن خلال شعره الذي يعبر عن شعوره بالضآلة والهوان، ولا سيما من جهة والده الـــذي جنبه أن يفعل الخير كما في قوله: [54]

وجنّبني أنْ أفعل الخيرَ والـــــــــدٌ ضئيلٌ إذا ما عُدّ أهلُ المنـــــاسبِ
بعيدٌ عن الُحسنى قريبٌ من الخنــــا وضيعُ مساعي الخير جمُّ المعايبِ
إذا رُمْتُ أن أسمو صعوداً إلى العُلى غدا عرقُهُ نحو الدنّيةِ جـــــــاذبي

وذكر في سياق قصيدة أخرى يحن فيها إلى دمشق أخاً له يكنى أبا الحسن، يدعوه إلى التجمل بالصبر [55].

مهلاً أبا حسنٍ فتلك سحابةٌ صيفيةٌ عمـــا قليلٍ تنجلي

وذكر من خلال قصيدة في باب الدعابة والتهكم ابن أخت يلثغ بالقاف ويخرجها همزة، فعمل له هذه الأبيات يداعبه بها في كل منها قاف [56].

مُقلةٌ قرحى وقلـــبٌ شيّقُ ومآقٍ ودقـــُها يستَبقُ
واشتياقٌ واحتراقٌ واتـــقا رُقباءٍ وسقـــامٌ موبِقُ
يا لقومي ولقومي قـــوّةٌ لوقيذٍ قتـــلتهُ الحـــدَقُ

ولا نظفر في شعره أوفي المصادر التي ترجمت له بأية إشـــارة إلـــى أهلـــه وذويه ولعل ابن عُنين، كغيره من أبناء عصره، دخل الكتاتيب التي كانت منتشرة في دمشق في عهد نورالدين زنكي، وأنه تلقى دروسه الأولى فيها، ثم انكب على طلب العلم وحضور مجالس العلم التي ازدهرت في الجامع الأموي بدمشـــــق، والمدارس الأخرى.

فقد أكثر في شعره من الحديث عن هذه المجالس، والشيوخ الـذين كـانوا يدرّسون فيها، وكان حديثه عنها، حديث المُلابس لها الخبير بها.

وقد ذكرت المصادر طائفة من الشيوخ الذين تلقىّ العلم على يديهم فقد أخـذ النحو عن أبي الثناء محمود بن نعمة [57] والحديث عن الحـافظ بـن عسـاكر ودرس الفقه على قطب الدين النيسابوري، وكمال الدين الشهر زوري وسمع من منوجهربن تركان شاه راوي مقامات الحريري.

ومن ثم نوّهت المراجع بسعة ثقافته، وتنوّع معارفه، ووصفته بأنه كان أديبًا ولغوياً[58]، وفقيهاً، ومؤرخًا، وذكرت له كتاب (التاريخ العزيزي) بالإضافة إلى(جمهرة الجمهرة).

وكان يستحضر كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد [59]، وكان بارعـاً فـي معرفة اللغة، مطّلعاً على معظم أشعار العرب، كثير الفضائل.

وقد مرت حياة ابن عُنين في أطوار عدّة، أولّها المرحلة الشامية الأولـى ويلاحظ أن ابن عُنين في هذه المرحلة قد استنكف عن قول الشـعر فـي دولـة نورالدين مدحاً و هجاءً، مع أنه عندما توفي نورالدين كان يبلغ من العمر حوالي عشرين عاماً، وبدأ قول الشعر وهو في سن السادسة عشرة [60]، ولعل موقـف نورالدين من الشعراء هو الذي دفعه إلى ذلك فقد كان نور الـدين، كمـا تـذكر المصادر لا يقبل على الشعراء، بل يقرّب العلماء.

غير أن شعره يبدأ بالتزايد في دولة صلاح الدين، فالملك الناصر ألين جانبًا للشعراء من نورالدين، وهو شعر يقوم في مجمله على النظرة الهجائية حيث قعد ابن عُنين لرجال الدولة الأيوبية كل مرصد، يهجوهم ويتبع هفواتهم حتى أنه ألف قصيدة في أهل دمشق اسمها (مقراض الأعراض)[61] فضج أهل دمشـق منـه، وألّبوا صلاح الدين عليه، فنفاه من دمشق [62]، فخرج منها وهـو يهتـف فـي وجوههم[63].

فعلامَ أبعدتُمْ أخا ثقـــــةٍ لم يجترمْ ذنباً ولاسـَــرَقـا

أُنفوا المؤذّنَ من بــــلادكمُ   إنْ كان َ يُنفى كلُّ منْ صدقـــا

وبهذا تنتهي المرحلة الشامية الأولى من حياة ابن عُنين.

وتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة في حياة ابن عُنين، حيث يتجه إلـــى العـــراق غير أنه لم يستقر، فخرج منها وهجا بعض رجال بغداد، ثم تنقّل ما بين خراسان وأذربيجان، وغزنه وخوارزم، ثم قصد الهند واستقر بها فترة لــم تــدم طــويلاً ولكنه امتدح ملوكها وحصّل أموالاً جزيلة [64] وعلى الرغم من ذلك فلم يطب له المقام هناك، فخرج منها رافعاً صوته[65].

وإذا سقى اللهُ البلادَ فلا سقــــــى   بلد الهنودِ سوى الصواعقِ والدِما

ولعل هذا يدل على تعمّق النزعة العربية في نفسه، وما يقوي ذلك قوله[66] مستلهماً روح المتنبي: [67]

فكيف تبيتُ تطمعُ في مديحي   رجاءَ نوالها العجمُ الخِساسُ

إذا طَمعٌ كسا غيري ثيــــاباً   يذلُّ بها كساني العزَّ ياسُ

ولو أني مدحتُ ملوكَ قومي   تراغَتْ حوليَ النَّعمُ الدخاسُ

ثمّ يقرر العودة إلى بني أيوب الذين هم ألين جانباً من غيرهم، فيقصـــد الـــيمن وكان ملكها طغتكين بن أيوب [68]، شقيق صلاح الدين، فمدحـــه بقصـــائد حســـان منها:[69]

حبيبٌ نأى وهوالقريبُ المصاقِبُ   وشحطُ نوىً لم تُنضَ فيه الركائبُ

يا ظالماً جعل القطيعةَ مــــذَهْبا   ظلمــــــاً ولم أرَ عن هواهُ مذهبا [70]

فأكرمه ملك اليمن، وأحسن وفادته، ويبدو أنَّ ابن عُنين آثر أن تكون له مهنـــة يعمل فيها، فاحترف التجارة في اليمن، وتنقّل بينها وبين مصر والحجاز وكسب منها أموالاً وفيرة.

وبعد ذلك يتجه صوب مصر ويقيم بها، وسلطانها يومئذ الملـــك العزيـــز عمـــاد الدين عثمان[71] بن السلطان صلاح الدين، فألزمه أصحاب ديوان الزكاة بدفع زكاة أمواله التي وصلت بصحبته [72]، فنظم قصيدة في ذلك [73]

ماكلُّ مَن يتسَّمى بالعزيز لـــــها   أهلٌ ولا كلُ برقٍ سُحبُهُ غدقَهْ

بين العزيزينِ[74] بونٌ في فعالِهما   هذاكَ يُعطي وهذا يأخذ الصدقهْ

بقي الشاعر في مصر، واهتمت به المحافل الأدبية فـــي القـــاهرة، والتقـــى بمجموعة من الشعراء منهم الشاعر ابن الساعاتي.

لم تنقطع صلة الشاعر بوطنه في فترة نفيه، فكان يراسل أخاه دومًــا ويبــث لواعج حنينه وشوقه في قصائد جميلة مثبته في ديوانه.

وبعد وفاة الملك الناصر صلاح الدين سنة 589هــ، قرر ابن عُنين العودة إلى دمشق، فكتب قصيدته المشهورة يستأذن بها العادل، أن يأذن له بالعودة إلـــى وطنه، وكانت دمشق آنذاك لابن العادل الملك المعظم عيسى [75] فعاد إليها وهو يهتف.[76]

هجوتُ الأكابرَ في جـــــلقٍ   ورعُتُ الوضيعَ بـــهجوِ الرفـــيعِ

وأُخرجتُ منها ولكننـــــــــي   رجعتُ على رغمِ أنفِ الجميعِ

وتبدأ مرحلة جديدة من حياة الشاعر، وهي عودته إلى دمشق واســتقراره بهــا حيث اتصل بالملك المعظم عيسى وقرّبه منه، فصار ممثلاً له يرسله إلـــى البلـــدان المجاورة، وصار وافر الحرمة، موفور الكرامة [77]، ولكن ابن عُنين بـــين الفينـــة والأخرى، كان يعود إلى الطبيعة التي فُطر عليها فهجا مستخدمي دولة المعظم

ولعل ذلك كان سبباً في توليه الوزارة في أخريات حياته ليسلم الناس من لسانه فقد أقامه المعظم مقام نفسه في ديوانه [78].

وتختلف الروايات في سيرته خلال توليه الوزارة، فمنها من يتهمـــه بالإســـاءة للوزارة، فساءت سيرته على ألسن الناس لذلك استقال، وفي ذلك يقول ابن النجـــار " نظر في الديوان بدمشق مدة ولم تحمد سيرته، فعزل ولزم بيته " [79].

ومنهم من ذهب إلى أنه كان محمود الولاية كثير النصفة مكفـــوف اليـــد عـــن أموال الناس مع عظم الهيبة.

وبعضهم يعلل أنه قد يكون رأى عملاً من المعظم لم يعجبه، لذلك نظم قصيدته التي يطلب بها إقالته من الوزارة (80).

أقلْني عِثاري واحتسبْها صـنيعةً يكون بُرحْماها لك اللهُ جازِيا

كفى حزنًا أن لستَ ترضى ولا أرى فتىً راضيًا عني ولا اللهَ راضيا

ولست ارجّي بعدَ سبعينَ حـجةً حياةً وقد لاقيتُ فيها الدواهيـا

ولكن المعظم لم يقبل إقالته، فبقي في الوزارة إلى أن توفي المعظم سنة 624هـ وتولى بعده ابنه الملك الناصر داود فاستبقاه في الوزارة، ولما أخذ الملك الأشرف موسى دمشق سنة 626هـ كان ابن عُنين قد بلغ من الكبر عتياً فلزم بيته إلى أن توفي سنة 630هـ.

ويدل مجمل شعره على أنه ذو شخصية ثائرة متمردة، ترفض كثيراً من مظاهر السلوك الاجتماعي في عصرها... ومن ثم وصفته المصادر أنه كان مفلقاً في الهجاء خبيث اللسان، فاسقاً يشرب الخمر ويخل بالصلاة، بل إنّ بعضهم رماه بالزندقة (81).

ويبدو أيضًا أنه يؤثر الهزل على الجد، أو قل إنه يعرض جدّه معرض الهزل ومن ثمّ كان ميالاً إلى الفكاهة والتندر، ولا سيما من أرباب السياسة والعلم في عصره، ومع ذلك فقد نوّهت المصادر بحسن معشره وجمال صحبته فقالت إنه "كان ظريفًا شاعراً... حسن الأخلاق جميل المعاشرة " (82).

الفصل الثاني

دراسة موضوعية لشعر ابن عنين

1.2 شعر المدح والجهاد

يشكل شعر المدح قسمًا كبيراً، من ديوان ابن عُنين، فقد بلغ عدد القصائد عشر قصائد موزعة على النحو التالي:

قصيدة في مدح الملك العادل، وقصيدة في مدح الملك الأشرف موسى بن الملك العادل، وقصيدة في مدح الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، وأخرى في مدح بني أيوب وذم العجم، وأخرى في مدح العزيز سيف الإسلام أبي الفوارس طغتكين بن أيوب، وقصيدة في مدح فخر الدين الرازي، وأخرى في مدح الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك.

ويُلاحظ أنّ شعر المدح في ديوان ابن عُنين، قد غاب إبان مرحلة صلاح الدين، وأنه لم توجد فيما نقل إلينا من هذا الشعر ايّة قصيدة قيلت في الملك الناصر ولعلّ هذا يعود إلى أنّ هذه المرحلة الفنية من حياته قد غلب عليها شعر النقد والهجاء وأن صلاح الدين نفسه لم يسلم من ذلك، وأن دولة الملك الناصر على الرغم من إنجازاتها الكبيرة لم تستهوِ الشاعر، فأعرض عن مدح رجالها.

ويلاحظ أيضًا أنّ هذا الغرض بدأ بنظمه عندما كان مبعداً عن وطنه، وهنا يمكن القول إن الشاعر اتخذ المدح وسيلة للاستشفاع، لعله يؤذن له بالعودة إلى دمشق وقد ظهر هذا واضحاً في مدائحه التي سيتبين لنا فيها كثرة الحنين إلى دمشق وربوعها.

غير أنه ينبغي أن نبين أن شعر المدح عند ابن عُنين لايمكن أن يدرس جملة واحدة، لانّ كلّ قصيدة كانت تتكوّن معانيها وأساليبها بناءً على المناسبة التي تقال فيها، والحالة النفسية للشاعر، وسأختار بعض النماذج التي توضح ذلك.

ومن هذه النماذج قصيدته التي قالها يمدح الملك العادل، ويستأذنه في العودة إلى دمشق، ومطلعها:-

ماذا على طيفِ الأحبةِ لوسرى　　　وعليهمُ لو سامحوني بالكَرى

وعلى الرغم من أن القصيدة لم تتناول موضوعاً واحداً، فإنه يسري فيها خيط نفسي واحد هو استشفاع الملك العادل للعودة إلى دمشق، وقد أملت هذه العاطفة على الشاعر أن يتخيّر في كل جزء فيها الصور والمعاني التي تعبر عن آماله بالعودة إلى وطنه، وتستلين قلب الملك العادل في أن واحد معًا، فها هو ذا يتغنى في فاتحة القصيدة بالحبيبة البعيدة غناءً حزيناً، فيشكو من هجرها، ويتألم لبعدها متوسلاً إليها أن تسمع شكواته، وتعود مواصلته، ولأن ابن عُنين يضمّن هذا الغناء حنيناً إلى دمشق، وتوسّلاته إلى الملك العادل أن يصفح عنه، ويسمح له بالعودة إلى مدينته. يقول: -[83]

يا مُعرضاً عني بغير جنايةٍ	إلاّ لمـا رقشَ الحسودُ وزوّرا
هبني أسأتُ كما تقوّلَ وافترى	وأتيتُ في حبّيك أمراً مُنكرا
ما بعد بُعدك والصدودِ عقوبةٌ	يا هاجري قد آن لي أنْ تغفرا
لا تجمعنَّ عليَّ عتبك والنوى	حسبُ المحب عقوبةً أن يُهجَرا
عبءُ الصدود أخفُّ من عبءِ النوى	لو كان لي في الحب أن أتخيَّرا

وقد أسهب ابن عُنين في هذا النسيب مفرغاً فيه مشاعره، إلاّ أنه لم يلبث أن يضيعه بالتلميح وكتم عواطفه، فتنفجر نفسه بالحنين الصريح إلى دمشق وأهلها. يقول:- [84]

فسقى دمشقَ وواديِها[85] والحمى	متواصلُ الإرعاد منفصمُ العُرى
أرضٌ إذا مرَّتْ بها ريحُ الصَّبا	حملتْ على الأغصان مسكاً أذْفرا
فارقْتها لا عن رضىً وهجرْتُها	لاعن قلىً ورحلتُ لا متخيّرا

ويوظّف ابن عُنين وصف الرحلة إلى الممدوح توظيفاً ذكياً إلى استعطاف الملك العادل واستمالة قلبه، فيصوّر مكابرته للسرى في صحبة رفاقة يحدوهم الشوق إلى لقاء هذا الملك. يقول:- [86]

ولقد قطعتُ الأرض طوراً سالكاً	نجداً وآونةً أجدُّ مُغوّرا
في فتيةٍ مثل النجوم تسنّموا	في البيد أمثالَ الأهلَّة ضُمَّرا

قالوا وقد خاط النُّعاسُ جفونَهم أين المُنــاخ فقلتُ جدوا في السُّـرى
لا تسأموا الإدلاجَ حتى تُدركوا بيضَ الأيادي والـجنـابَ الأخضرا
في ظلِّ ميمونِ النقيبةِ طاهرا لــ أعراق منصــورِ اللواءِ مـظفَّرا
العادلِ الملك الذي أسمــاؤه في كـلِّ ناحيةٍ تشَرِف مــنبرا

ويلح الشَّاعر في مدحه على تصوير عدل الملك العــادل وكــرم أخلاقــه وعفوه عن الذنب ونزاهته، وعدم استماعه لمقالة السوء، وكأنّ ابن عُنين يرفع بذلك أمام الملك العادل ما كان يرجوه منه، ويلمّح إلى أمله في العفو عنه.

وأن خاتمة القصيدة شكوى مرّة مــن البعــاد، وإحســاس غــامر بــالظلم والإجحاف مع تعليق الأمل على الملك العادل بأنه سيسمع شكواه، ويــرق لــه ويأذن له بالعودة إلى دمشق، يقول: -(87)

يا أيها الملك الذي مافي فضا ئله وسؤدَده ومحتِده مِــرا
أشكو إليك نوىً تمادى عمرُها حتى حسبتُ اليومَ منــها أشهرُا
لا عيشتي تصفو ولا رسمُ الهوى يعفو ولا جفني يصافحُه الكَرى
ومن العجائب أنْ تفّيأ ظلَّكــم كلُّ الورى ونُبذتُ وحدي بالعَرا
ولقد سئمتُ من القريض ونظمه مــا حيلتي ببضاعــةٍ لا تُشترى
فلأ شكرنَّ حوادثاً قذفت بــآ مــالي إليك وحقُّها أن تُشكرا

والنموذج الثاني قصيدته التي قالها يمدح الملك العزيــز سـيف الإســلام أبـا الفوارس طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن ومطلعها (88).

حبيبٌ نأى وهو القريبُ المصاقِبُ وشحطُ نوىً لم تُنضَ فيه الركائبُ

وهو في نسيبها يشكو هجر الحبيب له، على الرغم من القرب منــه، ويتغنــى بجمال الحبيب وحسنه، ويطيل الوقوف عند ذلك، مستخرجًا معاني وصوراً طريفة رابطاً ذلك بمعاناته الدائمة حتى ضاقت عليه المذاهب. يقول:-

حلبتُ شطورَ الدهر يُسراً وعُسرةً وجرّبْتُ حــتى حنكتني التجاربُ

ويتخلص من ذلك إلى تصوير عذاباته وآلامه وهو يتنقّل في مناكب الأرض قائلاً:-

فكم ليلةٍ قد بتُّ لا البدرُ مشرقٌ   يُضيءُ لرائيــهِ ولا النَّجمُ غـــاربُ
شققتُ دجاها لا أرى غيرَ همّتي   أنيســاً ولا لي غيرُ عزميَ صاحبُ
بممغوطة الأنساعِ قَوْدٍ كأنــها   على الرملِ من أثر الافاعي مَساحِبُ

وتنتهي به رحلاته، وتنقّلاته في البلاد إلى الممــدوح الملــك العزيــز ســيف الإسلام، وهنا يلتفت الشاعر إلى معجم القيم: فيخلع عليه من الصفات ما يرى أنها تميزه عن غيره من الملوك، مركّزاً على صفات الكرم والشجاعة والرأي الثاقب. يقول:-(89)

إلى بحرِ جُودٍ يُخجلُ البحر كفُّه   فقلْ عن أياديه فهنَّ العجائــبُ
إلى ملكٍ ماجادَ إلاَّ وأقلعـــتْ   حياءً وخوفاً من يديهِ السحائــبُ
إلى أبلجٍ كالبدرِ يُشرقُ وجــهُه   سناءً إذا التفتْ عليهِ المــواكــبُ
تسنّمَ من أعلا المــراتبِ رُتبةً   تقاصَرُ عن أدنى مداها الكواكــبُ
لنا من نداهُ كلَّ يـــومٍ رغائبٌ   ومــن فعلهِ في كلّ مدحٍ غرائبُ
فتىً حصنُه ظهرُ الحصانِ ونثْرةٌ   تكلُّ لــديها المُرهَفاتُ القَواضبُ
يُريه دقيقُ الفكرِ في كل مشكلٍ   مــن الأمرِ ما تُفضي إليه العَواقبُ

ويلح ابن عُنين في قصيدته على الشكوى من الزمان الذي سدّ عليه المــذاهب، آملاً من الممدوح أن يرفع قدره ويدافع عن فقره وحاجته: قال:- (90)

أتيتُ إليه والزمانُ عنــــادُه   عنادي وقد سُدّتْ عليَّ المــذاهبُ
ليرفع من قدري ويجزمَ حاسدي   وأُصبحَ في خفضٍ فكم أنا ناصبُ
فلم أرَ كفاً عارِضاً غيرَ كــفّهِ   بوجهٍ ولم يزوَرَّ للسخط حــاجبُ

ويشير الشاعر في قصيدته إلى تغلب الملك العزيز على بعض المناوئين له في اليمن ، وقضائه عليهم منهياً القصيدة بالدعاء له.

وليس بِراشٍ منه أقوى قواعداً   وإن غرَّ من فيه الظُّنونُ الكواذبُ

بقيتَ فكم شرَّفت باسمِك منبراً وكم نال من فخرٍ بذكركَ خاطـبُ

ويتخذ المدح في شعره –أحيانا– شكل رسالة شعرية يرفعها إلـى ممدوحـه، مضمّنًا إياها مطالبه.

فعندما وقّع له سيف الإسلام بألف دينار فمطله الديوان وكتب يسأله أن يعطـي ما منحه إياه، مقلّباً القول في الحديث عن كرم الممدوح وجوده، فهو يخجل الغيث وكعبة الفضل وبرقه ليس خلبّا..... يقول:- (91)

يا مخجلَ الغيثِ المُلِثّ إذا همى ومُهجّنَ البحر المـحيطِ إذا طَما

أنتَ الذي مـا زالَ واضحُ رأيهِ كالصبحِ إنْ لَيلُ الحوادثَ أظلمـا

يا كعبةَ الفضـلِ الذي نـاديتُه بالحجّ أقدمني إليها مُحـرما

ما كان برُقُكَ خُلبّاً إذ شِمـتُه فعلامَ بتُّ وقد همى أشكو الظَّما

حاشا لمجدكَ أن ألوذَ بظـلهِ وأكونَ في أتبـاعهِ صلةً لِما

ما قطَّبتْ لـي حاجباكَ فليتـني أدري وُقيتَ الـذمَّ لـِمْ عبساهُما

ومراميَ الأقصى يراهُ سماحُكم سـهـلاً وإقتاري يـراهُ مَغْنما

وقد واءم ابن عُنين بين معاني مدحه وفئات ممدوحيه مواءمة دقيقة، فيختـار لممدوحه الصفات التي تلائمه فهو عندما مدح صفي الدين بن شُكر وزير الملـك العادل أشاد بقدرته على تحمل أعباء المسؤولية، والنهوض بما يُسـند إليـه مـن أعمال بقوة واقتدار حتى زهت الدولة به.

وذلك يقول: (92)

دعُيتَ في الدولة الغراءِ صاحبَها حقـاً وظـنَّ جهولٌ أنه لقبُ

ألبستَها مـجَدكَ الضافي فباتَ لها ذيلٌ على منكبِ الجوزاءِ ينسحبُ

وكـــم ردْدتَ العِدى عنها بغيظهُم ... وأكبُــــــــدُ القومِ للأحقادِ تلتهبُ
إذا كتائبها عـــــن نصرها قعدتْ ... فـــي حادثٍ جللٍ قامتْ به الكُتبُ

وينوّه في القصيدة نفسها بالدّور الذي اضطلع به في وأد الفتن في دمشق بـين بني أيوب ورأب الصدع بينهم، بالقوة حينًا وبالحكمة وسداد الـرأي حينًــا أخـر يقول:(93)

حتى إذا أشرفتْ منهم دمشقُ على ... حربٍ لها الويلُ من عُقباه والحربُ
منحتَها منكَ عزماً صادقاً خضعتْ ... له ظُبى الهندِ والخَطيَّة الســـلُبُ
فكان رأيُك فيها رايةً طلعــــــتْ ... بالنصرِ فانجابتِ اللأواءُ والكـُـرَبُ
وباتَ أثبتُهم جأشاً وأحزمُـــــهم ... رأياً وأمضى سلاحاً عزمُه الهربُ
وكان ظنُّهم أن تلتقي بـــــــهمُ ... مصرُ البوارَ وتغشى النُوبة النُّوبُ
فأجفلوا وزعيمُ القوم غايةُ مـــا ... يرجو من الله أن تبقى له حـــلبُ
تـــدبيرُ أروعَ لا يَعــــيا بنازلةٍ ... ولا يبيتُ لخطبٍ قُلبهُ يجـــــبُ

وعندما مدح فخرالدين الرّازي وهنّأه بما تولاّه من المدارس والأوقاف، فإنه يستهل قصيدته بأبيات نشر فيها جوّاً دينيًا وأضفى عليها طابعاً عربياً بدوياً وذلك إذ يقول:(94)

ريحَ الشّمالِ عســاكِ أنْ تتحمّلي ... خِدمي إلى المولى الإمامِ الأفضلِ
وقفي بواديهِ المقدَّسِ وانــظري ... نــــــورَ الهُدى مُتألقاً لا يأتلي
مــن دوحةٍ فخريةٍ عُمــــريَّةٍ ... طابت مَغارِسُ مــــجدها المُتأثّلِ
مكيّةِ الإنسابِ زاكٍ أصــــــلهُا ... وفروعُها فوق السِمـــاكِ الأغزلِ

ويخلع على الممدوح الصفات التي يتحلى بها العلماء الأتقياء، فهو بحر تصــدر للعلوم، عفّ النفس، سليم دواعي الصدر، قد تصدّى للبدع والأهواء، حتى علا به الإسلام وأناف.

بحرٌ تصدّرَ للعُلومِ ومَنْ رأى ... بحراً تصدَّرَ قبلهُ في مـــحفلِ
ومُشمّرٌ في الله يسحبُ للتقُّى ... والدينِ سِربالَ العــفافِ المُسبلِ
ماتتْ بهِ بدَعٌ تمادىَ عُمرهُا ... دهراً وكان ظلامُها لا ينجـــلي

فعلا بهِ الإسلامُ أرفعَ هضبةٍ ورسا سِواه في الحضيضِ الأسفل

وحتى يبينّ مكانة الممدوح فانه يلتفت إلى من سبقه من العلماء العظماء والمسلمين وغير المسلمين، يقرنه بهم، فإذا هو يتفوق عليهم.

غَلِطَ امرؤٌ بأبي علي [95] قاسهُ هيهاتَ قصَّرَ عنْ مداهُ أبو علي
لو أنّ رسطاليسَ يسمعُ لفظةً من لفظةِ لعرتهُ هزةُ أفكلِ
ولحارَ بطليموسُ لو لاقاهُ من برهانهِ في كل شكلٍ مُشكلِ
فلو أنهم جمعوا لديه تيقّنوا أنّ الفضيلةَ لم تكن للأوّلِ

وقد كان لأحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة أثر واضح في قصائد المدح التي قالها ابن عُنين، وتمثل ذلك في الإشادة بشجاعة الممدوح التي وجهها لجهاد الأعداء والذود عن الإسلام والمسلمين كما في قوله يشيد بالدور الذي قام به الملك الأشرف موسى بن الملك العادل في دفع عادية الكفر عن مصر ومنع الفرنجة من استباحتها: [96]

لولاك لا نفصمتْ عرى الإسلام في مصرٍ وأُخملَ ذكره وتبدّلا
وتحكَّمتْ فيها الفرنج وغادرتْ أعلاجُها محرابَ عمروٍ هيكلا
أنتَ الذي أجليت عن حلبَ العدى وحميتَ بالسُمر اللّدان الموصلا

ويتغنى ابن عُنين بالأمجاد الحربية التي حققها الملك المعظم عيسى مشيدًا بالبطولة الجماعية للجيش المسلم، مصوّرًا قوته وشجاعته وواصفاً الخسائر الجسيمة التي ألحقها بالأعداء في معاركه المظفّرة. إذ يقول:- [97]

ومستخبرٍ عنّا وما من جَهالةٍ كشفتُ الغِطا عنه فزالَ ارتيابُه
وأذكرتُه أيامَ دمياط بيننا وبين العدى والموتُ تهوي عُقابهُ
وقد شرقتْ زرقُ الأسنَّةِ بالدما وأنكر حدَّ المشرفيّ قِرابُه
وعرَّد إلاَّ كلَّ ذمرٍ مغامسٍ ونكَّب إلاَّ كلَّ زاكٍ نصابُه
تركناهمُ في البحر والبر لُحمةً تقاسمهم حيتانُه وذئابُه
ويوماً على القيمون ماجتْ متونُه بزرق أعاديه وغصَّتْ شِعابُه

نثرنا على الوادي رؤوساً أعزّةً لكــل أخـــــي بأسٍ منيعٍ جنابُه

وتكثر المعاني الدينية التي ترتبط بعقائد طرفي الصراع في مدائح ابن عُنَــين، على شاكلة قوله[98] يصوّر (الصليب) وقد ديس بالصغار والهوان.

همُ تركوا صليبَ الكفرِ ارضاً يُداسُ وكـــــان معبوداً يُباسُ

وأرْغمَ بأسُهم آنافَ قـــــومٍ تجنبّــها لعـــــــزّتها العُطاسُ

في حين يمثل الدين في قصيدة أخرى وقد أشرق وجهه بعد أن طال عبوســه فيقول: [99]

وأصبح وجهُ الدين بعد عبوسهِ طليقاً ولولاهُ لطـــالَ اكتئابُـــه

جهادٌ لوجه اللّهِ في نصر دينهِ وفي طاعةِ الله العزيزِ احتسابهُ

حميتَ حمى الإسلام فالدينُ آمنٌ تُذاد أقاصيهِ ويُخشى جنابُـــه

أفرد ابن عُنين قصائد كاملة لأحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، منها قصيدته التي أوّلها: [100]

سلوا صهواتِ الخيلِ يومَ الوغى عنَّا إذا جُــهلتْ آياتُنا والقَنـــا اللُّدْنا

وقد قالها يمدح الملك المعظم عيسى في اثر انتصاره على الفرنج في ثغر دمياط سنة 619هـــ .

والقصيدة تعبر عن تجربة الشعور الجمعي بهذا الظفر، يظهر هذا واضحاً في (ضمير الجمع)، والصيغ الإنشائية التي تنقل صبر الشاعر وفرحه الغامر وفي وصفه لتغلب المسلمين على هذه القوة الضخمة للفرنجة:

غـــداة لقِينا دونَ دمـــياطَ جحفلاً من الرومِ لا يحُصى يقيناً ولا ظنا

قـــــد اتفقوا رأيًا وعزماً وهمةً وديـــناً وإنّ كانوا قـــد اختلفوا لُسنا

تـــداعوْا بأنصار الصليب فأقبلتْ جموعٌ كأنَّ المـــوجَ كان لهم ســـُفنا

وتصف بعض الأبيات السابقة الحماسة الدينية التي قدحت زناد الحرب في نفوس الغزاة، فاجتمعوا من كل قطر ومن وراء البحر فـــي جمـــوع ضـــخمة تعددت ألسنتها لقتال المسلمين في عقر دارهم، ويقابل هذه القوة الغازية بقـــوة

المسلمين الذين تصدّوا لهم، ودافعوا عن ديارهم، حتـــى ردّوهـــم وهزمـــوهم وأثخنوا فيهم.

فما برحتْ سمرُ الرمـــاحِ تنوشهم | بأطرافها حتى استجاروا بنا مِنّا
سقيناهمُ كأسًا نفتْ عنهمُ الكـــــرى | وكيف ينامُ الليلَ من عَدِمَ الأمنا
لَقُوا الموتَ من زُرق الأسنة أحمراً | فألـــقَوْا بأيديـــهم إلينا فأحـــسنّا

وينفرج تصارع الأحداث عن صورة الأســـرى الفرنجـــة الـــذين أحســـن المسلمون إليهم واعتقوهم ومنحوهم حياة جديدة، وذلك إذ يقول: (101)

منحنا بقاياهم حياةً جـــــديدةً | فعـــاشُوا بأعناقٍ مقلّدةٍ مَنًّا
ولو ملكوا لم يأتلُوا في دمائنا | وُلوغاً ولكنًّا ملكنا فأسجحنا

وحتى لا يظن الغزاة أن عفو المسلمين عنهم كان عـــن ضـــعف يـــذكّرهم الشاعر بوقائع سابقة أسروا فيها ملوكهم وقتلوا فيها فرسانهم.

وقـــد جربّونا قبلها في وقـــائعٍ | تـــــعلمّ غمُر القوم منّابها الطـــعنا
فكـــم من مليكٍ قد شددنا إساره | وكم من أسيرٍ من شقا الأسرِ أطلقنا
أســـودُ وغىً لولا قراعُ سيوفنا | لمـــا ركبوا قيداً ولا سكنوا سجنـــا
وكـــم يومِ حرٍّ ما لقِينا هجيره | بسترٍ وقـــُرٍّ ما طلبنا له كِنًّـــــــا

وبعد ذلك يقف الشاعر في مواجهة البطل المســـلم الملـــك المعظـــم عيســـى فيصطفي له أرفع المزايا التي يمكن أن يحظى بها قائد عسكريّ، فيعـــدّه نموذجـــاً للحاكم الذي تفاعلت في نفسه بطولة السيف والفضائل الخلقية ومثالية الحكم.

يسيرُبنا من آل أيوبَ مـــــاجدٌ | أبى عزُمه أن يســـتقرَّ به مـــعنـــى
كريمُ الثنا عـــارِمن العارِ باسلٌ | جميلُ المحيًّا كاملُ الحسنِ والحسنـــى
وطهرَّها مـــن رجسهمِ بحسامه | همامٌ يرى كسبَ الثنا المغنم الأسنـــى
مآثرُ مـــجدٍ خلَّدتها ســـــيوفُه | لهـــــــا نبأ يفنى الزمانُ ولا يفنـــى

2.2 الهجاء والنقد الاجتماعي:

احتل شعر الهجاء حيزاً كبيراً من شعر القرن السادس الهجريّ، وذلك لما جرى في هذا العصر من أحداث جسام، كان مجالاً رحباً لأن يزدهر هذا الفن وتتنوع أغراضه، فنجد بعضه جاداً لا أثر لروح الدعابة والنكتة فيه، ونجد الساخر الذي ظهرت عليه مظاهر التطور في الشكل والمضمون.

وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال فأصبح هذا النوع من الهجاء فناً قائماً بذاته.

واتخذ بعض الشعراء أسلوبًا في الإصلاح والتقويم، عن طريق توجيه النقد اللاذع لمظاهر الفساد الشائعة في ذاك العصر، وكأنهم أرادوا بذلك تطهير الأمة من هذه المفاسد.

ويُعد الشاعر ابن عُنين من أشهر شعراء الهجاء والنقد الاجتماعي البارزين في زمن الحروب الصليبيّة في بلاد الشام، وقد تميّز بين شعراء عصره بقيام شعره على النظرة الهجائية، وأشارت المصادر إلى تأهل هذه النزعة فيه وولعه بالهجاء وثلب أعراض الناس، وأنه قل أن سلم أحد من الرؤساء والملوك وأرباب العلم والمناصب من لسانه.

وقد وصفه معاصروه بأنه سخيف اللسان، قبيح الهجاء، أُغري بهجاء الناس وتمزيق أعراضهم [102].

ولعلَّ هذا يعود إلى إحساسه بالنقص، فقد نشأ في أسرة ضئيلة، لم تربّه، كما يقول، على فعل الخير، ويتضح ذلك في قوله: [103].

وجنّبني أنْ أفعلَ الخيرَ والدٌ ... ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسبِ
بعيدٌ عن الحُسنى قريبٌ من الخنا ... وضيعُ مساعي الخيرِ جمُّ المعايبِ
إذا رُمتُ أن أسمو صعوداً إلى العُلى ... غدا عرقُهُ نحوا الدنيَّةِ جاذبي

يضاف إلى ذلك ما كان يراه من مفاسد عصره، وهو عصر كما مرَّ بنا لا يخلو من كثير من الانحرافات في السلوك السياسيّ والإداري والاجتماعيّ، ولا سيمّا أن ابن عُنين أكثر من التجوال والتطواف في البلدان، واطلّع على كثير من مظاهر الحياة فيها بالإضافة إلى ملابستة لحياة العلماء والفقهاء في مجالسهم

وحلقاتهم، ووقوفه على مظاهر شتىّ ممن كان يعتقد أنه بجانب الصواب، تنوَّعت النماذج البشرية والمظاهر الحياتية التي هجاها ابن عُنين فقد تجرّأ علـــى دولـــة صلاح الدين، وصوّرها دولة ليس فيها إلاّ كـــلّ ذي عاهـــة ومفســـدة وذلـــك إذ يقــــول: (104)

قد أصبحَ الرزقُ مالهُ ســـببُ	في الناسِ إلاَّ البغاءُ والكـــَذِبُ
سلطاننا أعرجٌ وكـــــــــاتُبهُ	ذو عمـــشٍ والوزيرُ مُنـــحدِبُ
وصاحبُ الأمرِ خلقَهُ شـــــرسٌ	وعارضُ الجيش داؤهُ عـــــجبُ
وحاكمُ المسلمينَ ليـــسَ لَـــــــهُ	في غير غُرمـــــولِ أسودِ أربُ
والدَّولعيُّ الخطيبُ مـــــعتكفٌ	وهو على قشرِ بيضـــــــةِ يثبُ
عيوبُ قومٍ لو أنَّها جُمـــــــعتْ	في فلكٍ ماســـرتْ بـــــه شهبُ

وبلغ به الأمر إلى أن حمل على دولة صلاح الدين، بل إنه شذ في بعض أشعاره عن مشاعر الأمة تجاه الغزاة، وذلك إذ يقول: (105)

لا كـــــــان يومٌ بُدّلت	فيـــه الكنائسُ بالمساجدْ
لا تفـــــرحوا بفتوحِكم	هــــــذا فإنَّ الدهرَ راقدْ

وكانت الأحداث السياسيَّة بعد صلاح الدين، وما تبعها من تفـــرّق ذويـــه مجـــالاً خصبًا لنقد ابن عُنين، فعند ما فتح الملك الكامل (106) محمد دمشق بعد المعظم عيسى وأعطاها الملك الأشرف (107) موسى، قال (108) ابن عُنين بيتين مزج فيهـــا الهـــزل بالجد الذي كان ينطوي على قدر كبير من المرارة والأسى.

وكنًا نُرجيّ بعد عيسى محمداً	لينُقذنا من لاعجِ الضُرّ والبلوى
فأوقعنا في تيِه موسى فكـــلنًّا	حيارى ولا مَنٌّ لديه ولا سلـــوى

وقد تفنن ابن عُنين في نقده للحكام بأسلوب هزلي تظهر فيه روح السخرية والغمز بقوة.

وانتقد ابن عُنين الجهاز الإداري في مدينة دمشق زمن صلاح الدين، فها هو ذا يهجو بدر الدين(109) مودوداً شحنة المدينة ويضم إليه كل حاشيته، ويتهمهم في كفياتهم ويرميهم في سلوكهم وأخلاقهم، وذلك إذ يقول (110)

ماعند مودَودَ من قلْت مثـــالبهُ إلاَّ المُبارزُ إبراهيمُ(111) نائـــبهُ

ومَنْ سواهُ فكلبٌ لاخَلاقَ لــــهُ قـــد أعجزتْني فما تُحصى معايُبهُ

المستشارُ عفيفُ الدين(112) قد دَمِيتْ يـــدي على لَوْمة مـــمَّا أُعاتبهُ

ويهجو ابن عُنين أمير البيرة بدرالدين، ويتهكم به بطريقة مضحكة في قوله:(113)

لنـــا أميرٌ قرُنـــهُ ينطحُ في الأُفق الفلَكْ

كأنـــَّهُ في قلعةِ ال بيرةِ صيَّادُ السمـــكْ

ومن التجاوزات التي كشفها الشاعر ابن عُنين ما كان يمارسه بعض القائمين على المال العام من اختلاس وتبذير، فقد نظم قصيدة(114) يخاطب الملك المعظـــم عيسى في شأن القائم على خزانة دولته مصوّراً سلوكه وانحرافاتـــه المتزايـــدة وكيف انّه خان الأمانة، وسلب الأموال، ممَّا دفع الشاعر إلى المبالغة فـــي ذمـّــه وقدحه:

يا مليكَ الدنيا الذي أعظمَ اللـــ ـــه بتأييدِ عزّهِ سُلـــــطانَهْ

أنا أشكو إليكَ جـــَورَ رقيعٍ لقَّبوهُ الصَّفعانَ تاجَ الخـــزانه

عدمَ العقلَ والمروءةَ والإحـــ ســـانَ والدينَ والحيا والأمانهْ

وحَوى اللؤمَ والرقاعة والخـــ سَّةَ والجهلَ والخَنا والخيـــانهْ

زعموا أنَّهُ حفيظٌ على المـــا ل أمينٌ قلتُ اسكتــــي يافلانهْ

ويعّرض في أبيات أخرى لمتولي دار الزكاة، ويتهمه بسرقة الأموال المؤتمن عليها وذلك إذ يقول (115)

وسائقُ الصبيانِ أضحى ابنُه يَسرقُ من دارِ الزكاة الذهبْ

لا تسألوهُ واســـــألوا دارَهُ فإنَّهـــــــا تُخبرُ عمَّا نهبْ

ولا يغْفل الإشارة حتى وهو في أقصى فكاهته إلى النقد والتعريض، فحـــين أمـــر الملك العادل سنة (610هـ)" أيام الجمع بوضع سلاسل على أبواب الطريـــق إلـــى الجامع الأموي، لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عـــن التـــأذي بها"(116)، ويستغل ابن عُنين الأحداث اليوميّة لتوجيه النقد اللاذع إلـــى المســـتخدمين الذين استجاروا كيد الرعيّة وسرقة الأموال، فعندما أمر الملك المعظم عيسى بسلسلة

أبواب الجامع الأموي، اتخذ الشاعر هذه الحادثة مادة للنقد اللاذع للمستخدمين فيـــه: وذلك حين يقول: (117)

لمّا رأى الجامعُ أمـــوالهُ مأكولةً ما بين نــــوَّابهِ
جُنَّ فمنْ خوفٍ عليه غدا مُسلسلاً من كل أبوابـــهِ
وكيف لا تَعتادُهُ جِنـــــَّةٌ وقد رأى المَسخَ لأربابهِ
القردُ في شبّاكهِ حـــاكمٌ والتيسُ في قبّةِ مـــحرابهِ

ويعرّض ابن عُنين بابن عروة(118) الموصلي، وقد عَمّر مسجداً (119).

إنَّ ابنَ عُروةَ حينَ سوَّدَ بالزنا وجْهَيْ صحيفتهِ وبيَّض مسجدا
كمقامرٍ أدَّى الزَّكاة مـــــُرائياً للناسِ لا يرجو مثوُبتها غـــَـدا

ولما ذهب ابن عُنين إلى مصر، وطلبت منه الزكاة، اتخذ ذلك مدخلاً ليهجـــو الملك العزيز عثمان(120) صاحب مصر ' قارناً إياه بالملك العزيز طغتكين (121) صاحب اليمن فقال:(122)

ما كلّ مَن يتسمَّى بالعزيز لها أهلٌ ولاكلُ برقٍ ســحُبهُ غَدِقَهْ
بين العزيزيْنِ بوَنٌ في فعالِهما هذاكَ يُعطي وهذا يأخذُ الصدقهْ

وقد طال ابن عُنين في نقده الاجتماعي، رجال القضاة فقدّم صوراً متعددة من سلوكياتهم المنحرفة، وأحكامهم الجائرة وأزاح النقاب عن الكثير مـــن مســـاوئهم وعيوبهم، فكشف عن جوانب ألاعيبهم والطرق التي يلجأون إليها في اســـتغلال الناس، وركّز الشاعر على بعض التجاوزات والمثالب التـــي يمارســـها بعـــض القضاة هادفاً إلى تجريدهم من هيبتهم ومكانتهم الاجتماعية التي يعملون بها.

وعندما لا يجد الشاعر ما يطعن به في نزاهة القاضي ابن أبي عصرون(123) يستحيل نقده له ضرباً من العبث، كما في قوله:(124)

وما هَجْوتُ ابنَ عصرونٍ أرومُ لهُ فضلاً ولا نلتُ مِن فخرٍ ولا شرف
لكن أُجرّبُ فيهِ خاطِري عـــَبثـاً كما تُجَّربُ بيضُ الهندِ في الجَيَف

وينتهز فرصة شك المسلمين في عيد الأضحى، فيوجه نقداً لاذعاً لابن عصرون قاضي دمشق وكان أعمى، ولأهل دمشق عامة، وذلك إذ يقول: (125)

لاغروَ أن ضاعت الأعيادُ بينكمُ رفقاً كأنيّ بكم قد ضاعت الجُمعُ
فليعجب الناسُ من قومٍ يقَودهمُ إلى الضلالةِ أعــمى وهو مُتّبعُ
قد كذَّبوا مارأوهُ وهو متَّضحٌ وصدَّقوا ما رَواهُ وهــو ممتنعُ

ولما أمر المعظم عيسى بنزح ماء خندق القلعة بدمشق، ونال الناس من ذلك جهد عظيم، اتخذ ابن عُنين ذلك مدخلاً ليلمز أحد القضاة ويطعن في أمانته، فاقترح على الملك أن يضع هذا القاضي يديه في الماء فينزحه ولا يُبقي منه شئياً إذ يقول(126):

أرِحْ مِن نزحِ ماء البرجِ يوماً فقد أفضى إلى تعبٍ وعيِ
مُرِ القاضي بوضع يديه فيهِ وقد أضحى كرأسِ الدولعيّ

ومن الهجاء الذي حوى بذاءة القول وتطرق إلى الفحش ما قاله في ثلاثة قضاة من علية القوم.(127)

بدرانِ منكسفانِ من ضوءِ لسُّها لا ذاك مودودٌ ولا هذا حســـنْ
اثنان ِ قد تركتْهما عِرساهُمــــا ذا أيّلاً سامي القرونِ وذا رســـنْ
خانا فلو حكما على عينِ امريءٍ سَرقا بمكرهِما من الجفنِ الوسنْ
فسألتُ هل لكمــــا قرينٌ ثالثٌ قالا نعم عرّج على قاضي اليمنْ

وقد اتسعت دائرة النقد، فشملت بالإضافة إلى ما تقدم الفقهاء والخطباء وأئمة المساجد، فقد تهكم من الخطيب الدّولعيّ الذي كان يطيل في خطبته إلى حد يمل الناس من الاستماع إليها، وهذا جعله يسخر منه ويضيف إليه بعض الصفات على سبيل الإقذاع وذلك في قوله:(128)

وخُطبةُ الدوْلعيِ(129) كمْ جلبتْ للناسِ مِن فادحٍ ومِن خَطْبِ
يؤُمُّهمْ إذْ يــؤُمُّــهمْ جُنُبــُـاً فليتَهُ أمّـــهُمْ على جَنــْبِ
تَخشُّعٌ ما وراءهُ نُســـَـــكٌ يصـــدُرُ عن نيَّةٍ ولا قلـــب

ولا يكاد يخرج من المعاني السابقة في الأبيات التالية التي قالها فيه (130)

طوَّلتَ يـــا دولعي فقصّرْ وأنتَ في غيرِ ذا مُقصّرْ
خَطابةٌ كلُّها خُطـــوبٌ وبعضُهـــا للورَى مُنفّرْ
تظلُّ تهذي ولستَ تدري كأنكَ المغْرِبي المفسّرْ

واستهجن ابن عُنين ما كان يدور في ساحة المسجد الأموي بدمشق من جدال يفتقد إلى أصول الحوار القائم على الحجَّة والمنطق.

فيقول [131] في فقيهين، ينبز أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس راسماً لهما مشهداً، ينتقل به الشاعر من الواقع الحقيقي إلى الخيال القائم على التِّداعي المستجد من لقبيهما، ليحقق بذلك غرض الإضحاك والتسلية، وغرض النقد لهذين الرجلين

البغلُ والجاموسُ في جَدَ لَيهما   قد أصبحا مثلاً لكلِ مُناظر
برزا عشَّيةَ ليلةٍ فتنـــــــاظَرا   هذا بقرنيهِ وذا بالحـــــافرِ
جِلفانِ ما لهما شبيهٌ ثالــــثٌ   إلاَّ رقاعةُ مدلويه[132] الشاعر

ولم يسلم المتصوفة من النقد والتعريض، فقد ركزَّ الشاعر في هجاء هذه الفرقــة على بعض السلوكيّات غير السوّية التي كانت تصدر عــن بعضـــهم، كمـــا فـــي قوله:[133] في هجاء الملقّ الصوفي[134] الذي حاد – على حد قول ابن عُنين – عــن أصول التصوف الحقة واتّبع طريق إلاثم والزلل:

أخلق الشعرَ مدلويهِ وأهــليهِ   وأزرى الملقُّ بالصوفيَّهْ
حادَ عن مذهب التصوف إلاّ   كثرة الأكل فيه واللوطيَّهْ

ولكن لابد من الإشارة إلى أن المتصوفة لم يكن جميعهم على هذه الشاكلة التـــي ينبزها ابن عُنين، ولا سيما في القرن السادس الهجري بالذات الذي شـــهد ازدهـــاراً للتصوف السني، وذلك من خلال ما لاقاه هؤلاء من تشـــجيع وحظـــوة مـــن قبـــل السلاطين [135].

ويستغل الحوادث اليومية ويحيلها إلى مواقف هجائية هزلية قائمة على تصـــوير المتناقضات والمفارقات المضحكة في السلوك، فقد كان في بغداد رجل يدعى عمراً يتردد على امرأته رجل اسمه غيّاث تزعم أنّه أخوها، فوجدهما يومًا على حـــال لا تكون بين الأخوين، فمنعه من دخول داره، وتحاكما فلم يُمنع غيّـــاث مـــن زيـــارة أختــــه.[136]

فاستغل هذه الحادثة ونظم [137] في ذلك أربعة أبيات:

غياثٌ وعمروٌ فاسمعوا ما علمــتُهُ   لشيخينِ عندي من حديثهما شانُ
غياثٌ نفى عن نفسهِ الحدَّ في الزنى   وعمروٌ بتوقيعِ الخــــليفةِ قَرنانُ

وقال فيهما:-

غياثٌ فاسمعوا قولي وعمروٌ　　لهم عندي أحاديثٌ ظريفهْ

فزانِ ما عليه مِن جُنــــــاحٍ　　وقوَّادٌ بتوقيعِ الخـــــــليفهْ

وعندما صُفع ابن عساكر في إحدى المناسبات قال[138] فيه خمس مقطوعات تقوم على التلاعب بالمعاني الهزلية، وتفتيق الصّور الطريفة، ودقة اللمح إلى الفكرة[139].

إلى لحيةِ المرءِ اللعينِ ارتقتْ يــــــدٌ　　لها في صعود الحادثاتِ سُعودُ

وقد أصبحت مثل القُرى اللائي أهلكتْ　　قديمــاً فمنها قائمٌ وحَصــــيدُ

ويستغل الشاعر العيوب الخُلْقية ويحيلها إلى مواقف ساخرة، فقد كان له ابن أخت يلثغ بالقاف ويخرجها همزة، فعمل [140] له أبياتاً يداعبه بها في كل كلمة فيها قاف.

مُقلةٌ قرحى وقلبٌ شــيّقٌ　　ومآقٍ وَدْقُها يستبــــقُ

واشتياقٌ واحتراقٌ واتقا　　رُقباءِ وسَقامٌ موبِـــقُ

يا لقومي ولقومي قــوّةٌ　　لوقيذٍ[141] قتلتهُ الحــدَقُ

إرفقوا بالقلبِ قــد أوثقتمُ　　قيدهُ والعشقُ قيدٌ موثقٌ

فالشاعر يتسلى في هذه المقطوعة على حساب الآخر، وقد كان (التخريب اللغوي)، عن طريق التلاعب بالعناصر اللغوية، والأداء الشفويّ مصدر السخرية فيها بحيث يبدو النطق بها مثيراً للضحك، حيث ينفسخ النص بسبب نطق القاف همزه إلى أجزاء لا معنى لها، سواء أكان على مستوى المفردة أم على مستوى الجملة [142].

ولم يقف الشاعر ابن عُنين في هجائه الاجتماعي عند مستخدمي الدولة، وإنّمــا تعدى إلى مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ونشاطاتها، فكان للمهنيين مــن أطبــاء وكحالين جانب من هذا الهجاء.

ولعل ذلك يعود إلى انتشار مهنة الطب، وكثرة أعداد المشتغلين فيها في القرن السادس الهجري، وبالإضافة إلى الاهتمام بإقامة المرافق اللازمة لها [143].

ولعل بعض من يمتهن هذه المهنة كان يرتكب بعض التجاوزات والأخطاء الناتجة عن جهله وعدم معرفته بأصول الطب، وقد ركّز الشاعر في هجائه على ما يتصف به هؤلاء من قصور وقلة معرفة.

كما في هجائه للرّحبي [144] إذ يقول[145]:

تجَعْمسٌ قَلَّ مَن يُناظِرُهُ ... في الناسِ إلاَّ تعنُفُقُ الرَّحبْي

المدَّعي أنَّهُ بحِكمتهِ ... علَّم بقراطَ صنعةَ الطبِّ

وهو لَعمْري أخسُّ منْ وطي الترْ ... بَ وأولى باللعنِ والسَّبِّ

ويلج الشاعر في هجاء الموفق [146] بن المطران، حتى ضجر منه وحّرض السلطان على نفيه، وقد يكون ذلك يعود إلى ما كان يتسم به الموفق من تكبر وزهو بالنفس، وقد عرض ابن عُنين ذلك بطريقة ساخرة، إذ يصوّر ابن المطران يجوب شوارع دمشق مختالاً فخوراً، ويتبعه غلامه الذي يدعى عمر.

وقد كان ابن المطران نصرانياً ولكنه أسلم، ولكن ابن عُنين لم يتيقن من ذلك فبقي يشكك في إسلامه، ويتهمه بحبه لغلامه عمر الذي كان يتصف بالجمال الفائق. وذلك إذ يقول: [147].

متى أرى سيدي الموفَّقَ يختا ... لُ ضُحىً في عراصها الرُّحْبِ

يمشي الهُوينى وخَلَفهُ عمرٌ ... يختالُ مثل المَهاةِ في السِربِ

وسيدي كلَّما تأمَّلَهُ ... تاهَ وأبْدى غَرائِبَ العُجبِ

وقال يهجوه أيضاً [148]

الحمدُ للهِ واجبِ الشكرِ ... قد اهتدى سيّدي أبو نصرِ

واتبّعَ الحقَّ حينَ لاحَ لَهُ ... فجرُ الهُدى من دُجُنةِ الفجرِ

وقال إنَّ المسيحَ ليسَ بمعـ ... ـبودٍ وأفتى الصليبَ بالكسر

ما ذاك إلاّسَترٌ على عــمرِ رُبَّ انتهـــاكٍ خيرٌ من السَترِ
فقلتُ يا قومُ إن في عــمرِ معذرةً إنْ سمعتــــــمُ عُذري

ويبدو هذا الهجاء في بعض صوره ضربًا من التجارب الأسلوبية التي تســتهدف إظهار القدرة على الإتيان بالصور والمعاني.

كما في قوله ينسب إلى العامة زعمها أن ابن المطران قد تشيّع، ثم يعجب من هــذا الزعم لأن الذي دعاه إلى الإسلام هو عمر إذ يقول: (149)

قالوا الموفقُ شيعيٌّ فقلتُ لـــــهم هذا خلافُ الذي للناسِ منهُ ظهرْ
وكيف يصبحُ دينُ الرفضِ مذهبهُ وما دعاهُ إلى الإسلام غيرُ عمرْ

وصوّر ابن عُنين حال بعض الكحالين، وما كانوا يلحقونه بأعين الناس من ضرر وما كان يجلبه للأجفان من آلام شديدة، مصدرها الكحل الذي يسبب للعين الســليمة العمى، كما في هجائه لأحدهم (150).

لو أنَّ طلاَّبَ المطالبِ عندهم علمٌ بأنَّك للعـــيـــــون تُعوّرُ
لأتوا إليك بكل ما أمّلتــــهُ منهم وكانَ لكَ الجزاءُ الأوفرُ
ودعوكَ بالصبَّاغِ لمَّا أنْ رأوا يُعشي العيونَ لديكَ ماءٌ أصفرُ
وبكفّكَ الميلُ الذي يحكي عصا موسى وكم عينٍ بـــه تتفجَّرُ

وينبغي أن يدرك الدراس أن بعضاً من هذا الشعر كان يرد في ســياق الدعابــة والفكاهة، ولكنه لا يخلو من إشارة ناقدة كان يرصدها الشاعر مــن طبيعــة الحيــاة الاجتماعية السائدة آنذاك، وهجا بعض شعراء عصره مثل الرشــيد النابلســي (151) ويبدو أن سلاطة لسانه قد أصابت ابن عُنين فجرد لسانه فيه وجلُّ هجائه فيــه كــان فاحشاً (152)

تعجَّبَ قومٌ لصفعِ الرشيــدِ وذلــــك مـــا زالَ مِن دابهِ
رحمتُ انكسارَ قلوبِ النعالِ وقـــــــد دنَّسوها بــأثوابهِ
فو اللهِ ما صفعوهُ بــــها ولكنَّهـــــمْ صفعوها بـــــه

جعل ابن عُنين للنّعال قلوبا تتكسر وتتأذى من دنس ثيابه وفي هذا امتهان شـــديد لكرامته، حين يعد النَعال على وضاعتها أجل منه قدراً.

وتتكرر فكرة دنس الرشيد النابلسي واشمئزاز الموجودات من اللقاء بـــه أوحتـــى ملامسته، فهذا شعر ابن عُنين نفسه يشكو إليه مغبة هذه العلاقة المستكرهة، ويـــرى في ارتباطه إذ يقول: (153)

شَكا شعري إليَّ وقالَ تهجو   بمثلي عرض ذا الكـــلبِ اللئيمِ
فقلتُ له تسلَّ فرُبَّ نـــــجمٍ   هوى في إثرِ شـــيطانٍ رجيمِ

ومن الشعراء الذين تعرض لهم ابن عُنين القاضي الفاضل (154)وكان هجاؤه لـــه في أغلبه فاحشًا، ربما كان يتعمد ذلك ليحط من شأنه وقدره إذ إنه كان يتمتع بمكانة مرموقة في العصرين الفاطمي و الأيوبي.ومما قاله(155) فيه متهكماً في حدبته التـــي يفسرها تفسيراً مضحكاً.

حاشا لعبدِ الرحيمِ سيدنِا الـــ   فاضلِ مّما تقولهُ السُّفلُ
وتبَّ من قال إنّ حـــــــدْبَتَهُ   في ظهرهِ من عَبيدهِ حَبَلُ
هذا قياسٌ في غير ســـــــيدنا   يصحُّ إن كان يحبلُ الرجلُ

وتعدى الأمر بابن عُنين إلى هجاء من كانوا على صلة وعلاقة بالقاضي الفاضل، إذ يعمد إلى السخرية منهم هادفًا إلى التندّر بالقاضي الفاضل نفسه والحط من قيمتـــه ومن هذا قوله (156) في شخص يسمى السدّيد الفاضلي، معرّضـــاً بارتبـــاط مريـــب بينهما:

سألتُ السديدَ الفاضليَّ (157) وقد بدا   عليـــــهُ هزالٌ بـــعد شدَّةِ أســـرهِ
أكنتَ مريضاً قال كلاً وإنمـــــا   تخيّرنـــي عـــبدُ الرحيمِ لســــرّهِ
فقلتُ لهُ إن القِطمَّ اختيـــــارُهُ   لأ وضعِ فحلٍ من تفاقُم أمـــــرهِ
فما هذه ما بين ثدييكَ قالَ لـــــي   تقعُّرُ صدريِ مـــن محدَّبِ ظهرهِ

وقد طفق ابن عُنين في شعره يتعرض للناس في دمشق وغيرها، حتى أنه نظـــم قصيدة طويلة سَّماها، (مقراض الأعراض) فلم يسلم من لسانه أحد، وهي مؤلفة فـــي

الأصل من خمسمائة بيت كما تذكر المصادر (158) ولكن في الديوان اثنان وخمسون بيتاً وجاءت القصيدة أشبه ما تكون بالشتائم والسّباب، واستعمل فيها كلمات جارحة، وقد استهلها الشاعر بقوله:(159)

أضالعٌ تنطوي على كـرْبِ ومُقلَّةٌ مُستهلَّهُ الغَـــرْبِ
شوقاً إلى ساكني دمشقَ فلا عَدتْ رُباها مواطرُ السُّحبِ
منازلٌ ما دعا تذكرُهـــا إلاّ ولَبَّى علــى النَوى لُبّــى

وبعد هذه المقدمة التي يصف فيها تبدّل حال دمشق، يأخذ في الهجاء بنفس طويل وتفنن بأساليب الثلب والسبّ، وقد تناول شخصيات اجتماعية متعددة، وقد تقدّم ذكـر ذلك ويتعرض ابن عُنين في مطولته للمغنين فيهجو ابن هلال المغني، حيــث يعقــد بينه وبين الكلب مشابهة في الصوت ذلك إذ يقول (160)

وابنُ هلالٍ إذا تنحنحَ للــ عنــاء يعوي مُشابِه الكلــبِ
حَلقٌ وضربٌ يستوجبانِ لهُ معَّجلَ الحلق منهُ والضربِ

وتتخذ بعض أهاجية أسلوباً فكاهياً كما في الأبيات التالية (161) التي يــذم فيهــا خروفاً هزيلاً أهداه له الشريف الكحّال (162) بعد أن وعده به مدة، حيث شبّه هــزال الخروف بعاشق شفه الوجد والبين حتى بدا كالخيال الذي لا يُرى

أتاني خروفٌ ما شككتُ بأنــهُ حليفُ هوىً قد شفَّهُ الهجرُ والعذلُ
إذا قام في شمسِ الظهيرةِ خـلتهُ خيالاً ســرى في ظلمةِ مالهُ ظِلُّ
فنا شدتهُ ما تشتهي قــال قَتَّةٌ وقاسمتــهُ ما شفَّه قال لي الأكلُ
فأحضرتُها خضراء مجَّاجةَ الثرَّى مُسلَّمةً ما حَصَّ أوراقها الفتــلُ
فظلَّ يراعيها بعينٍ ضــعيفةٍ ويُنشُدها والدمعُ في الخدِ منُهــلُ

3.2 الغربة والحنين:

يعبر شعر الهجاء والنقد الاجتماعي الذي تمت دراسته سابقاً، في بعض نواحيه عن الشعور بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن القيم والأعراف والممارسات الاجتماعية السائدة، وما يصحب من ذلك من سخطٍ ونقمة وتمرد، وقد انتهى ذلك، كما أشرنا، بأن طُرد ابن عُنين من ديار الشام وأخذ يتنقل في فجاج الأرض بحثًا عن الملاذ الآمن، ولقمة العيش.

وقد صوّر شعره تنقلّه في البلدان وحمله عصا التّسيار من قطر إلى آخر، وكأنه كُتب عليه ألا يستقر في مكان، كما في قوله: (163)

غريبٌ إذا ماحلَّ مصراً أبى له   وشيكُ النوى إلا ارتحالاً إلى مصرِ
فحتّامَ لا أنفكُّ في ظهر سبسبٍ   أهجّرُ أوفي بطن دوّيةٍ قفـــرِ
أُشقّقُ قلب الشرقِ حتى كأنني   أُفتّش في سودائه عن سـنا الفجرِ

وشكا في قصيدة أخرى (نوى تمادى عمرها) حتى حسب اليوم منها أشهرا (164)

أشكو إليك نوىً تمادى عمُرها   حتى حسبتُ اليومَ منها أشهُرا

وتكثر في أشعاره الصور والمعاني التي تعبر عن أحزانه في غربته بعيداً عن ديار الشام، فقد طالت عليه هذه الغربة، وأفنى البين مدامعه وأنسيت نفسه المسرّات، وماتت عنده الآمال (165)

لقد أُنسيتْ نفسي المسراتِ بعدكم   فإنْ عادَ عيدُ الوصل عاد سرورُها
وقد ماتتِ الآمالُ عندي وإنمـا   إلى شرفِ الدين المليكِ نُشورُهـا

وهو نازح قلق الحشا مرتاع(166) يكابد المزعجين: الخوف والخطرا (167)

يا أيـها الملكُ المعظمُ دعوةً   من نازحٍ قلقِ الحشا مُرتـاعِ
وليلةٍ مثل موج البحرِ بتُّ بها   أكابدُ المزعجين الخوفَ والخَطَرا

وهو يعاني في هذه الغربة من إحساسٍ طاغٍ بالوحدة وفقدان الأنيس، كما في قوله: (168)

فكم ليلةٍ قد بتُّ لا البـدرُ مشرقٌ   يُضيءُ لرائيـهِ ولا النَّجمُ غاربُ

شققتُ دُجاها لا أرى غير همّتي		أنيساً ولا لي غــيرُ عزميَ صاحبُ

ويصوّر في نسق شعريّ جميل، وعبارة شاكية ما يكابده في تنقلاته من حــزن وكأبه وحسرة وجزع، وإحساس مرّ بالاغتراب، فكلما تأزمت نفس الشاعر بهموم الغربة والنفي بدا التعلق بموطنه والحنين له. وذلك إذ يقول: (169)

فإلى متى أنا بالسِفار أُضيّعُ الــ		أيام بين الشدّ ولإيضــــــاعِ
حلف الرّحالة والدُّجى فرواحــلي		مــا تأتلي ممعوطةَ الأنساعِ
أشبهتُ عمراناً وأشبهَ كـــلٌّ منْ		جاوزْت منزلهُ فتى زنبــاعِ
بيناْ أصبّحُ بالســلامِ محـــلةً		حتى أمسّي أهلــَها بــوداعِ
أبداً أُرقّحُ كي أرقّعَ خـــــلةً		من حالةٍ مثل الردا المُتداعي

ومما عمّق إحساس ابن عُنين بالغربة في البلدان التي تنقل بها، ما كان يعانيه من مظاهر اجتماعية يظنّ أنها فاسدة، وما كان يشاهده من سلوك بعــض النّــاس لذلك فهو لم يحمد الإقامة في تلك البلدان، فعندما دخل بغداد ســخر مــن أحكــام الخليفة وأحكام قضاته (170)

غياثٌ وعمروٌ فاسمعوا ما علمــتهُ		لشيخين عندي من حديثهما شانُ
غياثٌ نفى عن نفسه الحدَّ في الزنى		وعمروٌ بتوقيع الخليفــةِ قَرنانُ

وذم المدينة وأهلها قائلاً: (171)

وقالوا غدتْ بغدادُ خِلوْاً وما بها		جميلٌ ولا مَنُ يُرتجى لجميلِ

ووصف أهل بخارى بالشحّ " وأنهم يغلقون أبوابهم في وجه الغريب ويلحقونه إلى الخان ليأكلوا زاده ويسلبوا متاعه... ولئن راقته صباحة الوجوه في خــوارزم فقد أقلقه المؤذنون، فكلُ منهم كالسّليم لا ينام ولا يُنيم، يصعد المنارة بعد نصــف الليل فلا يزال يزعق حتى

الفجر " (172).

وولّدت تجربة الغربة في نفسه مشاعر مريرة جعلته يدعو على الهند وأهلها بأن تنزل بهم الصواعق، وتمطر عليهم السماء دمًا بدل الماء وذلك إذ يقول: (173)

وإذا سقى اللّهُ البلادُ فلا سقى بلدَ الهنود سوى الصواعقِ والدمِا

ويبدو أنّ ابن عُنين أدرك في غربته أن ّ حكّام وطنه وبني قومه أرحبُ صدراً وأرق قلباً من أبناء تلك البلاد التيّ تجوّل فيها، ولعل شعوراً بالندمِ على ما فات من مواقفه منهم قد أخذ يتسرّب إلى قلبه، كما يُستشف من قوله: (174)

ولو أني مدحتُ ملوكَ قومي تراغَتْ حولي النَّعمُ الد ّخاسُ

فإنَّ الناس في طرُقِ المعالي لهم تَبعٌ وهــم للنــاس راسُ

وإذا كانت الأشعار السابقة تمثل إحساس الشاعر بالأرق النفســي والاســتلاب الروحي بسبب بعده عن وطنه، فإن تجربة الغربه بعثت نمطًا آخــر مــن الشــعر ينطوي على عواطف رقيقة، ويسري فيها تيار من الحزن الذي يثور حيناً ويهــدأ حيناً آخر. وقد وظّف ابن عُنين وسائل فنية عدّة للتعبير عن هذا الحنين من ذلــك وصف أرقه بسبب بعده عن وطنه، وإحساسه بتطاول الليل عليه، حتى بات يرقب أسراب النجوم في بزوغها، كما في الأبيات التالية ولّد فيها صوراً متعددة تــوحي بمعاناته (175).

حنينٌ إلى الأوطانِ وليس يزولُ وقلبٌ عن الأشواقِ ليسَ يــــحولُ

أبيتُ وأسرابُ النجوم كأنــــها قفُولٌ تهـــــادى إثــرهَنّ قُفولُ

أرقبها في الليلِ من كل مطــلعٍ كأني برعـــي السائراتِ كــفيــلُ

فيالكَ من ليلٍ نأى عنه صبحُـــه فليس له فجرٌ إليــــــه يؤولُ

أمـــا لعُقود النــــجمِ فيه تصرمٌ أما لخضابِ الليل فيه نُصـــولُ

كأنَّ الثريَّا غرةٌ وهـــــوادهمٌ له من وميض الشعريين حُجولُ

ويستغل ابن عُنين في مقّدمات قصائده كلّ مـــا يمكــن أن يواجهــه المحــب المهجور الذي نأى عنه أحبابه من زفرات حين تخطر ذكر الأهل، وفقدان السرور لبعدهم ونبوّ مضجعه، وعصيان النوم له، إذ يقول: (176)

أهاجكَ شوقٌ أم سَنا بارقٍ نجـــــدي   يُضيءُ سناهُ ما تجنُّ من الوجــدِ
تَعرّضَ وهناً والنجومُ كأنــــــــها   مصابيحُ رهبانٍ تُشبُّ على بـُـعدِ
حننتُ إليه بعدما نام صــــــحبتي   حنين العشار الحائمات إلى الوردِ
يُذكرني عصراً تقضَّى على الحَمى   وأيامنَـــا في أيمن العلَمَ الفــرد

ويركز ابن عُنين في القصيدة التي أُخذت منها الأبيات السابقة على الحنين في لأحدى الحسان، فيرسم لها صورة جميلة، ويبين أنه وفيّ لعهدها، ولـم تنـل يـدُ النوى من حبّه لها،

وإذا أم عمـــروٍ كالغزالةِ ترتــعي   بوادي الخزامى روض ذات ثرىً جعد
غُلاميّةُ التخطيط ريميَّة الطَّلـــى   كثيبيةُ الأردافُ خـــــــوطيَّةُ القَـدّ
حفظتُ لها العهد الذي ما أضاعَهُ   صـــــُدودٌ ولا ألوى بــــه قدمُ العهدِ

ويستطلع في أشعار أخرى أخبار وطنه، ويحن إلى أيّامه وذكرياته فيه بعد أن طال بعده عنه كما في الأبيات التالية التي يحن فيها إلى مصلى دمشق: (177)

ألا خَبّروني عن حمى تلِ راهطِ   يلذُّ به سمعي وإن فاتني النظــرْ
وقُصّا أحاديث المُصلَّى وأهــلهِ   عليَّ فما لي سوى ذاكَ مِن وطرْ
لقد طالَ عهدي بالمصلَّى فليتني   رأيتُ المصلىَّ أو سمعتُ له خبرْ

ويتكرر هذا المعنى في أشعار أخرى لابن عُنين، كما في قوله يصّور خفقــان قلبه ورجف فؤاده عند ما يسمع خبراً عن وطنه(178)

وما قيل قد وافى من الشامِ مخبرٌ   عن القوم ألا أقبلَ القلبُ يرجفُ
وأعرضُ عن تسآله عــنك خيفةً   إذا خفَّ كـــلُّ نحوه ُ يتعَّرفُ

ويرسم في أحدى مقطوعاته صورة مّثل فيها معاناته في حنينه وأشواقه إلـى دمشق ارتفع فيها إلى مستوى راقٍ من التعبير الشعري حين قــرن هــذا الحنـين بالطير العطش في فصل الصيف: (179)

وما حائماتٌ تمّ في الصيف ظمْؤُها   فجاءتْ وللرمضاءِ غليُ المراجلِ
فلما رأين المــــــاءَ عذباً وأقبلتْ   عليه رأين الموتَ دونَ المنــاهلِ

فعادتْ ولم تنقعْ غليلاً وقد طــوت　　　حشاها على سم الأفاعي القواتلِ

بأكثرَ مِن شوقي إليكَ ولــوعتي　　　عليك وإنْ لم أحظَ منك بــطائلِ

ويبدو أنّ مرارة الغربة قد خففت ما في نفس ابن عُنين من غيظ وحنق علـــى أهل دمشق، فقال في ذلك قصيدة يحنّ فيها إليهم، وقد استخدم فيها ضـــروبًا مـــن الصور والمعاني التسويغية، فغدرهم به وفاء، وهو يجد الإساءة منهم إحساناً إليـــه بل إنه يرى أنّ السّهام التيّ صوّبوها نحوه منٌّ يقول:(180)

رعى اللهُ قوماً في دمشقَ أعزةً　　　عليَّ وإن لم يحفظوا عــهدَ من ظعــنْ

أحبةَ قلبي في الدُّنوّ وفي النوى　　　وأقصى أماني النفس في السرّ والعلنْ

أناساً أعدُ الغدرَ منهم بذمتي　　　وفاءً وألقى كـــلَّ مـــا ساءني حسنْ

وكم فوَّقوا نحوي سهاماً عــلى النَوى　　　فأصمتْ فؤادي واعتددتُ بها مــــننْ

وقد وعدتني النفسُ عنهم بـــــسلوةٍ　　　ولكن إذا ما قمتُ في الحشرِ بالكــفنْ

وكم قيلَ لي في ساحةِ الأرضِ مذهبٌ　　　وعن وطنٍ للنفس ميلٌ إلى وطـــن

وهل نافعـــي أنَّ البلادَ كـــثيرةٌ　　　أطــوفُ بها والقلبُ بالشامِ مرتــهنْ

وما كنتُ بالراضي بصنعاءَ منزلاً　　　ولوْ نلتُ من غُمدانَ ملك ابن ذي يزَنْ

عسى عطفةٌ بدريةٌ تعكسُ النــَوى　　　فألفى قريرَ العين بالأهلِ والوطـــنْ

غير أنّ أجمل أشعاره في الحنين تلك التي مزج فيها بين مشاعر الشـــوق ووصف الطبيعة الدمشقية الجميلة، كما في الأبيات التالية التي كتبها وهو فـــي بلاد الهند جوابًا عن كتاب يتشوق إلى دمشق ويتكلف الصبر عنها، حيث هشّت نفسه إلى ذكرياته فيها، وأيامه الجميلة التي قضاها في بساتينها وربوعها:(181)

يا سيدي وأخي لــقد أذكرتنـــي　　　عهد الصبى ووعظتني ونصحت لي

أذكرتَني وادي دمشقَ وظلّه الــ　　　ضافي على صافي البَرودِ السلــسلِ

ووصفت لي زمن الربيعِ وقد بدا　　　هرمُ الزمــانِ إلى شبـــابٍ مــُقبلِ

وتجاوبَ الأطيارِ فيه فمــــطربٌ　　　يُلهي الشجيَّ ونــائحٌ يُشجي الخَــليِ

يُغني النديمَ عن القيانِ عنـــاؤها فالعندليبُ بهـــا رسـيلُ البـلبلِ
فكأنها أخذتْ عن ابـن مــقلدٍ قـــول المسرّج فـي الثقيل الأولِ
ومد امةً من صيدنايا نـــشرُها مـــن عنبر وقميصها من صندلِ
مسكية النفحات ِ يَشرفُ أصـلهُا عن بابلِ ويجـــلُّ عــن قُطربُّلِ

ومن ثمّ فقد كثرت أسماء المواضع الدمشقية في شعر الحنين الذي قاله علـى نحو يسترعي انتباه القارئ، ويبدو بعض هذا الشعر معرضًا لهذه الأسماء، فيـذكر "آبل والمرج وعزّتا وصيدنايا، وبردى وقاسيون، وسنير ، وراهط ...."

وكأنه يهرب وهو في غربته إلى دمشق أرضاً وسكناً، حيث يظهر في عينيـه زاهية لا يضاهيها أي مكان، كما في الأبيات التالية: (182) التي قالها وهو فـي دباوند يحن إلى دمشق.

أبعد مُقامي في دباوند أبتـــغي دمشقَ لقد حاولتُ عـنقاءَ مـــُغْربِ
وما قبضتْ كفُّ الخضيبِ على يدي ولاحط ًفـوق الطائر النسر مـركبي
فيا حبذا قـــومٌ هناك وحـبذا مــن الأرض غربيُّ الحد إلى وغرَّبِ
لئن أشرفتْ بـي فـي الشام ثنيةٌ أرى كــوكباً من فوقها مثل كوكبِ
ولاحَ سنيرٌ عـــن يميني كـأنَّهُ سنامٌ رعيبٌ فـــوق غاربِ مُصعبِ
ولاحتْ جبالُ الثلجِ زُهراً كــأنها ضـــياءُ صباحِ أو مفارقُ أشـيبِ
وشامتْ قلوصي من حمى تل راهطٍ رياضاً حكت وشي اليماني المُعصَّبِ
وسرَّحتُها فـــي ظل أحوى تدفَّقت بأرجائه الأمواهُ من كلّ مشـــربِ
غفرتُ لدهري ما جنى مـن ذنوبه وأصبحتُ راضي القلبِ عن كل مذنبِ

4.2 الرثاء :

لم يكن الرثاء من الموضوعات الأثيرة لدى ابن عُنين، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة شخصيته القلقه المتوترة التي لم تكن معنيّة بتجارب الفقد والمصير البشريّ بشكل عام. وثمة ثلاث قصائد من الرثاء في ديوانه، الأولى قالها في رثاء الملك المعظم عيسى، وقد كان ابن عُنين مقرباً منه، وتربطه به علاقة مستقرة نوعاً ما والقصيدة مطلعها: (183)

يا دهرُ ويَحكَ ما عَدا مّما بدا　　أرسلتَ سهم الحادثات فأقْصدا

وهو يستهلها بإظهار استسلامه لأحداث الدّهر وردى المنون لأنه لم تُعد تقض مضجعه حادثة بعد فقد الملك المعظم:

أغمدتَ سيفًا مرهفاً شَفَراتُه　　قد كان في ذات الآلهُ مجّردا

فافعل ْ بجهدِكَ ما تشاءُ فإنني　　بعدَ المعظَّم لا أُبالي بالرَّدى

ما خلتُه يفنى وأبقى بعده　　يا بُؤس عيشي ما أمرَّ وأنكدا

وتعكس القصيدة أحوالاً نفسية متعددة للشاعر وهي في جملتها تعبر عن لوعة الشاعر المفجوع، وعجز الدهر عن أن يطفئ نيران الأسى التي تلذع فؤاده ولكنه لا يملك إلا أن يلوذ بالعزاء لأنه لا مرد لحتميّة الموت.

لهفي على بدرٍ تغيَّب في ثرى　　رمسٍ وبحرٍ في ضريحٍ أُلحِدا

أبقيتَ لي يا دهرُ بعد فِراقهِ　　كِبداً مُقرَّحةً وجفناً أرمدا

وجوىً يؤجّجُ بين أثناءِ الحشا　　ناراً تزايدُ بالدموعِ تَوَقُّدا

لو كان خلقٌ بالمكارمِ والتُّقى　　يبقى لكان مدى الزمان مخلدًّا

أو كان شقُّ الجيبِ ينُقذُ من ردىً　　شَقَّت عليكَ بنو أبيك الأكبُدا

أو كان يُغني عنكَ دفعٌ بالقنا الـ　　خطيّ غادرتِ الوشيجَ مُقصّدا

ويصوّر الشاعر الفراغ الكبير الذّي تركه موت المعظم بعد وفاته، وهنا يستطرد الشّاعر في تعداد مآثره وذكر محاسنه في عبارة شعرية تنطوي على

قدر كبير من التحسّر واللوعة، ويركّز الشّاعر في القصيدة على الدور الذي كان يقوم به المعظم في دفع عادية الفرنجة عن الأمة، والجهاد في سبيل الله وقد جاء ذلك في مواضع متفرقة منها، كما في قوله (184)

كم ليلةٍ قد بتَّ فيهالا تـــــرى   إلا ظهورَ الأعوجيَّةِ مـــــرقدا
تحمي حِمى الإسلامِ منتصرًا لهُ   بعزائمٍ تستقربُ المستبـــــعدا
ولولا دفاعُك بالصوارمِ والــقنا   عن حَوزةِ الإسلامِ عاد كما بدا
وديارُ مصرٍ لو ونتْ عــزماتُه   عن نصرها لتمكنتْ فيها العِدى
ولأمستِ البيضُ الحرائرُ أسهُماً   فيها سبـــــابا والموالي أعــبُدا

وتتحول القصيدة في بعض أجزائها إلى استعادة للمواقع التي خاضها المعظم والمعارك المظفَّرة التي انتصر فيها على الغزاة، وهو في هذا كلَّه يرمي إلى تصوير خسارة الأمة بفقد هذا البطل المسلم. يقول: (185)

وبثغرِ دمياطٍ فكم مـــــِن بيعةٍ   عُبدَ الصليبُ بها وكانت مسجدا
أنقذتَها من خُطةِ الخسفِ التي   كانت أحلتَّها الحضيضَ الأوْهدا
أجليتَ ليلَ الكفرِ عنها فانطوى   وأنرت في عَرصَاتها فجَر الهُدى
ولقد شهدتُك يـــــوم قيساريَّةٍ   والشمسُ قد نسج القَتامُ لها ردا
والكفرُ معتصمٌ بسورٍ مُشرفِ الــ   أبراجِ أحـــــكمَ بالصفيحِ وشُيِّدا
فجعلتَ عاليها مكانَ أســـاسِها   وألَنــْـتَ للأخشاب فيها الجلمدا

ويعود الشاعر في قصيدته إلى تصوير تأثّره الذاتي ومعاناته الشخصية بموت المعظم عيسى، بل معاناة الملهوفين والمحتاجين الذين فقدوا نصيرهم: إذ يقول (186).

يا مالكاً من بعدِ فقدي وجـــهه   جارَ الزمانُ عليَّ بعدك واعتدى
أعززْ عليَّ بأنْ يزوركَ راثياً   من كان زاركَ بالمدائحِ مـــُنشدا
كم موردٍ ضنكٍ وردتَ وطعمُه   مرٌ وقد عافَ الكُماةُ المــــوردا
وعزيزِ قومٍ مترفٍ ســـــربلتَه   ذُ لاّ وكان الطاغيَ الـــــمتمرّدا

أركبَته حلقاتِ أدهمَ قصــَّرتْ منه الخُطى من بعد أشقرَ أجردا

وينهي الشّاعر قصيدته بتعزية ابن الفقيد الملك الناصر داود بن المعظم ولكنهَّـا تعزية قائمة على استدعاء معاني القوّة لذا فهو يحذر الأعداء مــن اســتغلال مــوت المعظم وأن يظنوا أن المسلمين قد ضعفوا بموته، فقد عوّضوا بمليك سيحمي ذمارهم ويدافع عنهم: إذ يقول:(187)

قل للأعادي إن فقدنا ســـــيداً يحمي الذمارَ فقد رُزقنا سيّدا

الناصرُ الملكُ الذي أضحى برو حِ القدسِ في كل الأمورِ مؤيَّدا

أعلى الملوك مِـــحلّةً وأسدُّهم رأيًا وأشجعهم وأطــولُهم يدا

ماضي العزيمةِ لا يُرى في رأيه يومَ الكريهةِ حــائراً متردّدا

يقظٌ يكـــادُ يُريهِ ثاقبُ فكرهِ في يومِهِ ما سوفَ يأتيهِ غدا

وهكذا فان القصيدة تعبر عن الأحزان الذاتية للشاعر ولكنّها، في الوقت نفســه، تعبر عن إحساس ابن عُنين بمدى الفقد والفراغ الذي تركه هذا البطل المسلم.

والقصيدة الثانية قالها يرثي ولدًا صغيراً للملك المعظم عيسى عن لسان أخيه الملك الناصر داود بن المعظم، وقد سأله ذلك إذ قال:(188)

لو أنَّ غيرَ الدهرِ كان العادي لتبادرتْ قومي إلى إنجادي

وأقدّم للحديث عن هذه القصيدة بما قاله النويهيّ في كتابــه (ثقافــة الناقــد الأدبيّ) عن " الرثاء المفتعل " حيث قال عن المفتعلين للحزن: إنهم " لا يظنــون الرثاء شيئاً إلاّمجالاً يهرقون فيه الدموع الغزيرة، ويصــعدون فيــه الزفــرات ويصرخون.... وهم بهذا كله لا يدلّون على حزن صادق.... ويعجزون عــن أن يستثيروا فينا مجاوبةَ عاطفية، ويضيف قائلا: إذا استجزنا الكذب في فــن أدبــي فلن نستجيزه في الرثاء، وإن تسامحنا مع المبالغة الشعرية في سائر الفنون فلــن نسامحها فيه، فالرثاء أشد فنون الشعر التزاماً للصدق.." (189)

يقول: حاول أن يتقمص فيها صوت الرجل الحكيم الذي يصوّر عجز الإنسان أمام الموت، وعدم قدرته على ردّه عن ذويه وأحبّته، مهما أوتى من قــوة إلاّ أن استطراده إلى مدح بني أيوب وإطنابه في مدحهم خنق التيار العاطفي فيها وأحال قسماً كبيراً من أبياتها إلى ثناء عليهم وتمجيد لهم. يقول: (190)

ولدافعتْ عنكَ المنونَ فــوارسٌ   بيضُ الوجوه كريمـــةُ الأجداد
قومٌ بني شاذي وأيوبٌ لـــــهم   فخراً تليداً فوق مــجدٍ عـــادي
من كلّ وضاحٍ إذا شهد الوغـــى   روّى الأسنةَ مــن دمِ الأكبـــاد
كسَبوا المكارمَ من مّتونِ صوارمٍ   وجنوا المعالي من صدور صِعاد
المبصرونَ إذا السنابكُ أطــلعتْ   شمسَ الظهيرةِ فــــي ثياب حِدادِ
لم تنبُ في يــوم الهياجِ سيوفُهم   عــن مضربٍ ونبتْ عن الأغماد

ويتقمص الشاعر شخصيّة الملك الناصر داود، حيــث يتحــدث عــن مشــاعر الأخوة، وتمنّيه أن يشارك أخاه الفقيد في أعباء الحياة وميــادين الجهــاد، غيــر أنَّ الموت عاجله، فرمته الأقدار بلوعة تأججت في صميم فؤاده، متمنيًا لو أنَّه بقي سندًا له وذلك إذ يقول: (191)

قد كنتُ أرجو أن أراك مُقاسمي   في خفضِ عيشٍ أو لقاءِ أعـــادي
وأراك في يومي وغىً ومــسرَّةٍ   قلب الخميس وصدرَ أهــلِ النادي
واراك من صدإ الحديد كــــأنما   نضختْ عليك روادعٌ بالـــجادي
فجرى القضاءُ بضدّ مـــا أُملتُه   فيـــه وأرهــفَ حــدَّهُ لعِنــادي
خانتنيَ الأيامُ فــــــيك فقرَّبت   يــوم الرَّدى مـــن ليــلةِ الميلاد
ورمتنيَ الأقدارُ مـــــنك بلوعهٍ   باتت تأجَّجُ في صميمِ فــــؤادي
لهفي عليكَ لــو أنَّ لهفًا نــافعٌ   أو ناقعٌ حَــرَّ الفؤادِ الصـــــادي

ورثى ابن عُنين الأمير بدرا لدين الجعبري الوالي بقلعة دمشق بقصيدة استهلها بأبيات بثّ فيها روح العظة والاعتبار، والتأمل في المصير الإنساني، داعيًا الإنسان

إلى أن يطامن من نفسه التي لا يستطيع الوقوف أمام قوّة الموت، وذلك إذ يقول: - (192)

لا يخدعنّكَ صِحةٌ ويســـــارُ   مالا يدومُ عليكَ فـهو مُعـــارُ
يغشى الفتى حُبُّ الحياة وزينةَ الـ   دينا وينسى مـا إليـه يُصـارُ
وإذا البصائرُ عن طرائق رُشدها   عميتْ فمـــاذا تنفعُ الأبصـارُ
لا تغترِرْ بالدهر إنْ وافاكَ في   حــــالٍ يسرُّك إنــه غــرَّارُ
انظرْ إلى مَن كان قبلكَ واعتبرْ   ستصيرُ عن كثبٍ إلى ما صاروا
فيزولُ عنك جميعُ ما أُوتيت في الـ   دنيا ولو زُويتْ لكَ الأمـــصارُ

ويؤبن ابن عُنين الفقيد تأبيناً حارّاً، وقد راوح في ذلك بين تعداد مناقـب الفقيـد ومآثره، وإظهار حزنه عليه، وتجرّعه الآلام لفراقه، مستذكراً أفضاله عليه، وأياديه التي أسداها إليه، مبيناً مكانته في الدولة الأيوبية، يقول:

يا بدرُ كنتَ لنا اليمينَ وما عسى   تُغني إذا مضتْ اليمينُ يســارُ
كنتَ المعُينَ على الزمانِ لنا إذا   غاضَ المعينُ وعزَّت الأمطارُ
يا بدرُ ضاقَ بك الضريحُ وطالما   ضاقتْ على عزماتكَ الأقطارُ
قد كنتَ ذُخراً للملوكِ وعُــمدةً   فبرأ يك الإيرادُ والإصــدارُ
ولكم برأيكَ من ورائكَ قد سرى   نحـو الأعـادي جحفلٌ جرَّارُ
كان الجوادَ بما حوى وقد استوى   في مـــالهِ الإقلالُ والإكثارُ

ولعلّ العلاقة الشخصية التي نمت بين الشاعر والمرثي، ولدّت في نفسه مشاعر عميقة من الحزن، ومن ثم كان في القصيدة قدرُ طاغٍ من الذاتية جعلتـه يستقصـي مكامن الحزن الخفية في نفسه، ولا سيّما أن الفقيد نقل ميتاً من دمشق إلـى بـالس يقول: (193)

ما العيشُ بعدكَ بالهنيء ولو صفتْ   فيه الحياةُ ولا الديـــــارُ ديارُ

هيهاتَ أنْ يلتذَّ جفني بـــالكـــرى من بعـــدِ فقدكَ أو يقرَّ قَـــرارُ
أو أرتجي خـــِلاً سِواك ابثـــُه الشكوى وتُحفظُ عنـــده والأسرارُ
غدرَ الزمانُ بنـــا ففرَّق بيننـــا إنَّ الزمـــانَ بأهله غـــدَّارُ
لو أنَّ قلبَ الموتِ رقَّ لهـــالكٍ لشجاهُ أطفالٌ وراكَ صـــغارُ
لم يكفِ صرفَ الدهر دفنُك في الثرى حتى نأتْ بكَ عـــن دمشقَ الدارُ
ما أنصفَ الدهرُ المفرّقُ بيننـــا أفبعدَ مـــوتٍ نُقلةٌ وســـفارُ

والقصيدة صورة صادقة لنفس ابن عُنين المحزونة، وهـــي مشـــحونة بمشـــاعر الحزن والأسى التي تعبّر عن آلام الثائر لفقد صديقه، كماكان ذلك باديًا في ضـــمير المتكلم، وتصوير الدموع الغزيرة، والحديث عن فقدانه النصير، وافتقاده الســرور. وحاكى ابن عُنين أسلافه من الشعراء السابقين في الرثاء السّاخر فرثى حمـــاراً لـــه مات في قصيدة شاب فيها الهزل بالجّد، أولها [194]

ليلٌ بأولِ يوم الحشرِ متَّصلُ ومـــقلةٌ أبداً إنسانُها خَضِلُ

وهي تعبّر عن سخرية لاذعة، حاكى فيها الأمور الجدية بطريقة هزليّة ولعلهـــا تنمّ عن سخرية بالمصير البشريّ، والمعايير الاجتماعية في عصره. لذا فقد افتعـــل فيها الأحزان وتصنّع الآلام على سبيل الفكاهة، فصوّر طول الليـــل واســـتكثر مـــن الصيغ الانفعالية والألفاظ الدالة على الحزن على (الحمار الفقيد) رافعًا بقوة تهكميَّة عالية، ونبرة حانية أن يرتفع بـــ (الحمار) إلى مستوى عالٍ من التبجيل يقول: [195]

ثوى المصَكُّ الذي قـــد كنت آمله عَوناً وخُيِّبَ فيه ذلـــكَ الأملُ
لا تُبعُدنْ تربةٌ ضـــمتْ شمائلَهُ ولا عدا جانبَيْها العارضُ الهطلُ
لو كانَ يفدى بمالٍ ما ضننُتُ به ولم تُصن دونه خيلٌ ولا خَولُ
لكنَّها خُطةٌ لا بـــدَّ يبلُغـــها هذا الورى كلُّ مخلوقٍ له أجلُ

5-2 الاخوانيات:

هي مكاتبات أدبية ورسائل تصوّر عواطف الأفراد ومشاعرهم يتبادلها الأدباء والأصدقاء، لبث مشاعر الود، أو لقضاء حاجة ما

ولكل منها نمط وأسلوب في البدء والنهاية.

وقد اتخذها ابن عُنين وسيلة للتراسل، حيث كان يعرض فيها ما يطرأ في حياته اليومية من مواقف سواء أكانت جدية أم هزلية، ليسكب فيها مشاعره الصادقة وأحاسيسه الرقيقة.

ويصوّر هذا اللون الشعري العلاقات الاجتماعية بين الشعراء وذويهم أو بينهم وبين رؤسائهم وأصدقائهم وأحبابهم، ويعكس براعة الأديب، وانتقاءَهُ لجميل العبارات في مهارة بيانية، تدل على اطلاع واسع على اللغة وغريبها وبديع تركيبها، ويغلب على ذلك اللون اصطناع العاطفة فهو وإن صوّر المودة والوفاء مرّة، فقد صوّر النفاق والتّملُّق غالباً.

وإنّ موضوعاتها شتّى وأغراضها جمة تتناول المسامرات والمناظرات والتهاني والتعازي والتشوق والعتاب والاعتذار والتهادي والاستزارة وطلب الحاجة والأحداث اليومية وغيرها.

وقد تعالج الرسالة الواحدة أغراضاً عدة في آن واحد، أو تقتصر على جانب معيّن فتلقي الأضواء على كل وجوهه وقد يكون مما يساعد على انتشارها تبدّل العلاقات الاجتماعية، بالإضافة إلى انحصار همّ الشعراء في إظهار البراعة في نظم الشعر وتدبيجه وإثبات المقدرة اللغوية بغض النظر عن جودة المعنى أو أي أمر آخر.

كما ورد في ديوان ابن عُنين حين اقترح عليه فخر الدين الرازي أبياتاً في كل كلمة منها سين فقال: (196)

مَرْسى السيادةُ سدةٌ سيفيـــة   محروسةٌ مسعودةٌ التأسيسِ
سيفٌ يسركَ سلّهُ وســـــؤالهُ   لمساءةٍ يوسي وسلبِ نفــوسِ
سَبَق السَّراة بسيرةٍ وســــريرةٍ   محسودتين وسارَ سيرَ رئيسِ
حَسُنَتْ سريرتُه وقُدّس سنـــخُه   وسما بأسلافٍ سراةٍ شُـــوسِ
أسلاف ساداتٍ سما بـــجلوسهم   رأسُ السرير مسندُ التـــدريسِ
سنُّوا السماح فــأسرفتْ سؤَّالهم   فإساءةٌ إحسانهم بالعــــــيسِ
ويَسرَّ سارية الســحاب قياسُها   بسماحه وبسيّبهِ المبْجُـــوسِ

وهنا نلاحظ براعة الشاعر في انتقاء الكلمات بحيث تدخل السين في كــل كلمــة وينظم قصيدة أُخرى يدخل حرف الحاء في كل كلمة يقول: (197)

حيّا محلَّ الحاجبيَّةِ بالحمـــــى   والسفحَ سفحٌ مُدلَحٍ سَحــَّـــاحِ
حتى تُصاحبَ حِسْلَهُ حيّاتــــــه   ويضاحكَ الحوذانُ حسن أقــاحِ
سُحبٌ يُوشّحُها لمــوحٌ مـــُلقِحٌ   ويحفّ حافلُها حفيف ريـــاحِ
حمّالةٌ حنّانةٌ فحنينُـــــــــــها   والريحُ تحفزها حنيـــنُ رزاحِ
تحيي المُصوّحَ والــمحيل فَسحُّها   كحيا أبي الفتح السحوح الساحي
المحتوي بسماحهِ وحسامــــــهِ   مدح الفصيحِ وحُلّة الجحـــجاحِ
الأريحيُّ السمحُ والرحبُ الــحِبا   أضحى حماهُ محطّة المجــتاح
ومُحالفُ الإحسانِ يمحو حــلمُه   أحقادَهُ والحلمُ أحسنُ مـــاحِ

وينضوي تحت لواء الإخوانيات كما ذكرت سابقاً عدد كبيــر مــن الأغــراض يضيق البحث عن حصرها، لذا ارتأيت أن اكتفي ببحث أهم هذه الأغراض التــي وظّفها ابن عُنين في شعره.

فقد صوّر هذا الشعر حياة ابن عُنين في مرضه كما في قولــه يخاطــب الملــك المعظم ويسأله أن يسعفه بالمال قبل موته (198)

انظرْ إليَّ بعين مولىً لم يزلْ   يُولي الندى وتَلافَ قبلَ تلافي

أنا كالذي أحتاجُ ما يحتاجُه فاغنَمْ ثوابي والثناءَ الـوافي

فلما قرأهما أتاهُ بنفسهِ ومعه ثلاثمائة دينار وقال: هذه الصلة وأنا العائد.

ومن الأمور التي تستوجب الاعتذار شعراً الإبطاء في الرد على كتاب أو إرسال هدية لا تناسب المقام أو العجز عن تنفيذ وعد أو تلبية أمر.

ويرسل ابن عُنين هدية إلى الرشيد النابلسي ويرفقها بشعرٍ يعتذر فيه لأن الهديـة زهيدة الثمن لا تناسب مقامه الرفيع.

وهذا الضرب من الشعر يدل على انتشار التهادي في ذلك العصر بين الشـعراء وأفراد الهيئة الحاكمة تودّداً للحاكم وتقرُّباً إليه سعياً وراء مصلحةٍ شخصيةٍ تقتضيها ضرورات الحياة و ظروف العصر. إذ يقول: (199)

يا أيها الصاحبُ الصدرُ الذي شَهِدَتْ بفضله ونداُه البدوُ والحَضَـرُ

عساكَ تقبلُ شيئاً قد بعثتُ بـه نُزْراً فإنني إلى علياكَ أعـتذرُ

ولو بعثتُ عـلى مقدار فـضلِك أر سلتُ الكواكبَ فيها الشمسُ والقمرُ

ويطالعنا في هذا العهد كمّ وفير من شعر التهادي يرسله الشعراء مصحوباً بالهدية المختارة ابتغاء التقرب منه والتحبب إليه واعترافاً بالولاء وكسب مرضاته وقد يُتخذ هذا الشعر سبيلاً للتعبير عن مشاعر الحب الرقيقة في شيء من الغزل يفضي به الشاعر مكنون قلبه ويكشف عن رغبات نفسه من ذلك ما نجده عند ابن عُنين، حيث ينظم أبياتاً يقدم فيها مماليكه هدية للملك الأشرف يطلب منه أن يقبل هذه الهدية. قال: (200)

يا ملكَ الدنيا الذي سخطُـه يُفني وجَدوى كـفّه تُغني

لي أَعبدٌ قد ضاق ذرَعي بهمُ وأضجرتْهم عِلّتي مـني

يشكونَ مني مثلَ ما أشتـكي منهم فخلّصهم وخلّصـني

وتلقى الهدية المصحوبة بالأبيات الشعرية الجميلة قبولاً حسنًا كما يلقـى الشـعر التابع لها الامتنان البالغ.

ويتبين لنا مما تقدم أن هذا الضرب الشعري كان نوعاً من أنواع التسلية عرض

لنا صورة عن طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الناس في تلك الآونة، وما كان يسود هذه العلاقات من حب وود وشيوع ما هو شبيه بما يسمى في وقتنا الحاضر (أسلوب المجاملة) وذلك بقصد تمتين أواصر الصداقة حيناً أو سعياً وراء أغراض ومتطلبات دنيوية أحياناً أُخرى، وعلى الأغلب كان هذا هو الوجه السائد فقد أكثر الشعراء من هذه المجاملات مجاراة لروح العصر والطقوس الاجتماعية التي كانت سائدة فيه.

ويتخذ شعر الوقائع والمحاضرات أحياناً صورة مدائح إخوانية تشف عن روح الصداقة الخالصة والمودة الصافية بين ابن عُنين وبعض أصدقائه.

فقد حضر درساً لفخر الدين الرازي بخوارزم في يومٍ شاتٍ وقد سقط ثلج كثير، فإذا حمامة يطردها صقر فألقت نفسها في حجر الفخر الرازي فرجع عنها الجارح، ورق لها الشيخ، وأخذها بيده، فقال ابن عُنين في الحال [201]

يا ابنَ الكرام المُطعمينَ إذا شتَوا — في كلِ مَخمصةٍ وثلجٍ خاشفِ
من نبّأ الورقاءَ أنَّ محلّكم — حَرمٌ وأنّك ملجأٌ للخائفِ
وفَدَتْ عليك وقد تدانى حتفُها — فحبوتَها ببقائها المستأنفِ
ولو أنها تُحبى بمالٍ لانثنتْ — من راحتيكَ بنائلٍ متضاعفِ
جاءتْ سُليمانَ الزمانِ بشكوِها — والموتُ يلمعُ من جناحي خاطفِ
قرِمٌ لواهُ القوتُ حتى ظلُّه — بإزائهِ يجري بقلبٍ واجفِ

ويسترسل ابن عُنين في بسط مشاعرِه نحو من يمدحه فيبوح له بما يختلج شعورِه إذ يسأله رجلٌ من أهل دمشق شفاعةَ إلى الملك العزيز بعد وفاة الملك المعظّم، وهذا يدلّ على مكانته العالية عند الملوك، فيكتب إليه يستعطفهُ فهو اليتيم الذي يحتاج إلى رعاية وأنت أيها الملك خير كافلٍ فلا تدع أيتامك تضامُ يا ابن الكرام.

قال: [202]

عطفاً علينا يا عزيزُ فإننا — بعدَ المعظّمِ عندكم أيتامُ
ولأنتَ خيرُ الكافلينَ فلا تدعْ — أيتامكمْ يا ابن الكرامِ تُضامُ
حاشا لمجدكمُ الأثيلِ بأن نُرى — في بابِ غيركمُ ونحن قيامُ

ويبدو أن الشاعر قدّ م مطلبه في سياق المديح فـأكثر مـن عبـارات الثنـاء والإطراء، أملاً أن يحظى بمراده ورضاه وهذا يدلُّ على أن ابـن عُنـين رأى أن الاستباق إلى المديح في شيء من التزلّق والتملّق أجـدى وأكثـر نفعـاً عنـد ذوي السلطان.

وتكثر الأشعار التي يداعب بها الملك المعظم عيسى، مما يدلّ على مدى العلاقة الحسنة التي كانت تربط بينهما، إلى حدّ كان معه ابن عُنين يخرج عن حدود اللياقـة في خطاب الملوك.

فقد كان الملك المعظم قد غضب على القاضي زكي الدين بن محي الدين قاضـي دمشق، وأراد عزلهِ، فبعث إليهِ بقلنسوةٍ صفراء وقباء أصفر أمر بلبسهما في مجلس حكمهِ [203]. فانقطع ابن عُنين عند ذلك في مسجد وأظهر التوبة فبعث إليـهِ الملـك المعظم بقنّينةِ خمرٍ وفصوص للنرد يداعبهُ بذلك، فقال ابن عُنين مخاطباً لهُ: [204]

يا أيها الملك المعـــــظمُّ سنّةٌ — أحدثتَها تبقى علـــى الآبـــادِ
تجري الملوكُ على طريقِك بعدها — خلع القضاةِ وتـــــحفةُ الزُهادِ

وتفضي به وقائع الحياة إلى التأمل في أحداثها ولا سيّما في الموت الذي يرى فيه حقيقة واقعة يتساوى فيها الصغير والكبير كما في قوله: [205]

لم يبقَ لي غير أن أموتَ كـما — قد مات قلبي مني إلى آدمْ
كلٌّ إلى اللهِ صائرٌ وعلـــــى — مـــا قدّم المرُء قبله قادمْ
يُدرِكُ ما قدَّمـــــتْ يداهُ إذا — مـــات فإمّا جذلان أو نادمْ
فــــــــيا لها حسرةً مخلّدةً — إذا تساوى المخدوُم والخادمْ

وقد يقوم شعره في الوقائع على التلاعب اللفظي لاسـتخراج معنـى طريـف أو صورة طريفة كما في قوله يخاطب المعظم عيسى ويطلب منه أن يقدّمه عنده ويمنُّ بالمال عليه. [206]

كـــــــأنيَ من أخبارِ إنَّ ولم يجز — له أحدٌ في النحـــوِ أن يتقدّما
عسى حرفُ جرٍ من نداك يجـــرّني — إليك فأضحي من زماني مُسلمّا

وقد أضفى ابن عُنين على بعض إخوانياته طابع الفكاهة والتندر مشبعاً رغبته في التصوير الهزلي ومن ذلك قوله يداعب جمال الدين بن شيث [207] والرشيد النابلسي ويضيف نفسه إليهما [208]

أنا وابن شيثٍ والرشيدُ ثلاثـــــةٌ لا تُرتجى فينا لِخَلْقٍ فـــــائدْه
من كلِّ من قصرتْ يداهُ عن الندى يومَ الجداَ وتطولُ عنـد المائده
فكأنَّنا واوٌ بعمروٍ أُلحقـــــتْ أو إصبعٌ بين الأصــابع زائــده

فغضب ابن شيث وشقّ عليه أن يُسخَر منه، فأصلح الملك المعظم بينهما وأخـذ عهداً بأن لا يتعرض لابن شيث فقال ابن عُنين[209]

كذبٌ كل مــــا ادعيتُ وزورٌ أنا وحدي زيادةٌ في الخـــيام
ولزومُ السماط أكبرُ هـــــمّي وعلاجُ الأبوال أقصى مــرامي
وضيوفي الأُلى يبيتون غـــرْثى ويـداي الطوالُ عند الطـــعامِ

كما ويضفي ابن عُنين على بعض إخوانياته التي يستهدي بها الفكاهـة المشـوبة بالشكوى من الفقر كما في المقطوعة التي يستوهب فيها فروة من أحد أصدقائه.

إذ يقول: [210]

جاءَ الشتاءُ وليس عنـــدي فروةٌ والقرُّ خصـــمٌ لا يردُّ ويدفعُ
وإذا الشتاءُ أتى ومـــاليَ فروةٌ وألفيتَ كلَّ تميــمةٍ لا تنفعُ
إني أبيتُ على الطوى خاوي الحشا سَغَباً وأحـناء الضـلوع تُقعقعُ

ويتفنن ابن عُنين في استخراج المعاني الفكهة والصور الهزلية فيقدّم بأسـلوب فكاهي ما يختلج شعوره تجاه بعض الحوادث اليومية التي لم يرضَ عنها ومن هـذه الحوادث أهدى له الشريف الكحال [211] خروفاً بعد أن وعده به مدة كان هزيلاً جدّاً، فكتب إليه أبياتاً طريفة حاور فيها الخروف [212]

أبو الفضلِ وابنُ الفضلِ أنت وتربُه فغيرُ بديعٍ أنْ يكونَ لكَ الفضـلُ
أتتني أياديكَ التــــي لا أعدها لكثرتِها لا كفرَ عندي ولا جهـلُ
ولكنّني أُنبيــك عنها بطرفـــةٍ تروقُـك ما وافـى لها قبلَها مثلُ
أتاني خروفٌ ما شككتُ بأنـــهُ حليفُ هوىً قد شفّهُ الهجرُ والعذلُ

إذا قامَ في شمسِ الظهيرةِ خِلتـــــَهُ   خيالاً سرى في ظُلْمَةٍ ما لـــهُ ظِلٌّ

وقد أفاض ابن عُنين في الحديث عن وقائع بسيطة ربما يتعــرض لهــا دون قصد فيتخذ منها ابن عُنين موقفاً جدّياً يقدّمه على صورة شكوى لما أصابه من فئــة معيَّنة من الناس فمن هذه الحوادث قطع الماء عن داره بدمشق وهو جــارٍ لصــفي الدين بنُ شكر وزير الملك العادل، فكتب إليه يشكو ظمأهُ ويمدحه. فقد مازج الشاعر بين مراده والمديح فهو يشكو ظمأهُ ويمدح جارهُ صفي الدين إذ يقول [213]

أبثُّكَ يا صفيَّ الدينِ حالي   ولا يُشــكى إلــى غيرِ الكرامِ

أيقتُلَني ظمايَ وأنتَ جاري   وكيفَ يبيتُ جارُ البحر ظامي

ويروِّض ابن عُنين قريحته الشعرية على نظم الشعر في مختلف ميادين الحيــاة الاجتماعية، حيث يرصد بعض الحوادث اليومية الصغيرة، فقد أُخذ لهُ متاع وهو في مكة، فيجد في ذلك فرصة سانحة ليطلق العنان للسانه في تحريض ســيف الإســلام على أشرافها، فهم أضاعوا فروض الله والسنن، ودنسوا بيت الله فلا بد من قتــالهم وتطهير بيت الله منهم.

فهذه الحوادث البسيطة تفجر في داخله مواقف عدّة تجاه بعض الفئات من الناس، إذ يقول: [214]

أعيَتْ صفاتُ نداكَ المصقَع اللسنا   وجزتَ في الفضل حدًّا لحسن والحسنا

وإن أردتَ جهاداً روِّ سيفكَ مــن   قومٍ أضاعوا فروضَ الله والســـننا

طهِّر بسيفكَ بيتَ اللهِ مــنْ دنسٍ   وما أحاطَ به من خسّةٍ وخنــــــا

وتتضمن الإخوانيات عند ابن عُنين الألغاز ذلك الغرض الذي يتناول جميــع الأشياء المألوفة لدى الإنسان من أسماء أشخاص وأطعمة وأدوات منزلية وحيوان ونبات وغيرها من مختلف الأدوات. [215]

وإذا يقدم ابن عُنين لغزًا في المأكولات ، فيذكر أن كلاًّ منهمــا يــدل علــى الأخر إذا صحّف معكوسهما.

حيث يقول في المشمش والسمسم [216]

نبتان هذا أصلهُ سامقٌ قاسٍ وذا من خائرٍ قاصرِ
أيُّهما صحَّفت معكوسهُ دلَّ بلا شكٍّ علـــى الآخر

ويلغز في حِلوى الخشكنان [217]

وعُوجٍ كأمثالِ الأهلَّة بـــزّلٍ دقاقٍ حواشيها تماكِ حُضورُها
عقرتُ لصحبٍ جُوَّعٍ فرددتُهم بطاناً ولمَّا تدم منها نحـــورُها

وأنشد في البيضة [218]

ومملوكةٍ عندي حديثٌ نتاجـــــها أتتني بمولودٍ وما بلغتْ شـــهرا
على أنها بكرٌ حَصانٌ وعـــــالقٌ وهــذا لعمري مشكلٌ يتعب الفكرا
وقد ولدَ تها أمها وهــــــي حاملُ فيا عجباً إني أرى أمــرها نُكــرا
ومذ نَبذتَها أُمــــُّها حفيت بـــها حُنُواً وضمَّتها إلــى جنبها أخرى
وفي جمعِها نقصٌ وتصحيفُ عكسه يكونُ له صيتٌ وليسَ لــه ذكرى

ومن الألغاز التي يقدمها ألغازه في الحيوان وحيث أورد لغزاً في عقرب بعــد أن ذكر مفاتيح هذا اللغز في شطر الاسم المراد معرفته إلى شطرين في تضعيفها فنحصل في المصنف الأول على طائر العقعق وفي الثاني على وحش الرّبــرب.

وقال في العقرب:[219]

ومــا حيوانٌ يتقَّي الناسُ شـــــرَّهُ على انه واهي القوُى واهن البطشِ
إذا ضعَّفوا نصفَ اسمِه صار طائراً وإن ضعَّفوا باقيه صار من الوحشِ

ويورد لغزاً في طائر الورشان [220] إذ يقول: [221]

يا أدباءَ الزمانِ إنــــــــــّي أعجزني للعــــــويصِ كشفُ
فخّبروني عـــــــــن اسمِ جمعِ النصفُ ظرفٌ والنصفُ حــرفُ

ويقدم لغزاً في عجلة معدة لجر الأثقال، فيورد إشارات ترشدنا إلـــى حـــل اللغز ومن ذلك أنها تصدر أصواتاً مزعجة وهي تضطرب فـــي ســـيرها وهـــي محمولة وحاملة إذ يقول في العجلة:(222)

أهل العلوم أحاجيكم بـــــــــواردةٍ لا ترتوي ذات إبطاءٍ عـــلى عَجَلَهْ

إذا استوى بين رجليها امـــرؤٌ نطقتْ بمز عجاتٍ من الأصوات متَّصلة

تمشي وقائدها من خلفها أبــــــــداً تميدُ في المشي كالسكرانةِ الثمـــلةْ

صعراءُ إن هي قامــــتْ فهي مائلةٌ وإن مشت فهي كالميزانِ مـــعتدلةْ

وأحيانا نرى الشاعر ينسج من خياله شيئاً معيناً فينظم في ذلك أبياتاً، فها هـــو يرسم في مخيلته بئراً فقال ملغزاً فيه:(223)

ورميةٍ في الدارِ عندي عـــزيزةٍ عليَّ تروّيني الحديثَ بلا ضـــــجرْ

تفوتُ القنا الخطّيَّ طولاً وشكلُها يوازي الغلامَ الطفلَ في شدّة القصَرْ

وأحببتُ يوماً أن أراها بحـــليةٍ فصغتُ لـــــــها تاجاً ولكنَّه حجرْ

ويقدّم ابن عُنين قرائن عدة لترشد المتلقي إلى حل اللغـــز فيقـــول (224) فـــي الفروة التي يهجرها في الليل وفي الفجر يوصلها.

وتركيةِ الأنساب طــــــوراً أحـــــبُّها فأكرمُ مثواها وأُعنى ببــــرّها

أوصِلُها حتى إذا مـــــــا مللتُـــــها رأيتُ لذيذَ العيشِ في طولِ هجرِها

خلفتُ لـــها آبــــــاءها ووكلتُـــــــها إلى ناصحٍ طبٍّ خبيرٍ بســـرها

فجاءتْ على ما اخترتُ لا الطولُ شانها ولا قالَ فيها الناسُ عيباً لقصرها

وما ليلةٌ في الدهرِ إلا هـــــــجرتُها فلا وصـــلَ حتى تستنير بفجرِهـــا

وكانت زماناً يُستلذُّ ببطــــــــنها ولكنَّي ألتذُّ منها بظهــــــرِهـــا

ومن الألغاز التي يقدمها ابن عُنين، ما يصل إلى حد الإعجاز لما فيـــه مـــن إجهاد فكري، إذ يقوم الشاعر بنظم قصيدته يلتزم من خلالها بإيراد حرف معجمي

واحد في كل كلمة من كلمات القصيدة مع سلامة المعنى وجودته وهذا يدل على مقدرة الشاعر وثراء قاموسه الشعري.

إذ يقترح عليه فخرا لدين الرازي أبياتاً في كل كلمة منها سين. فقال: (225)

مَرْسى السيـــــادةُ سُدةٌ سيفيةٌ   محــــروسةٌ مسعودةُ التأسيسِ
سيفٌ يسركَ سلُّةُ وســــؤالهُ   لمســاءةٍ يؤسي وسلــبِ نفوسِ
سبقَ السَّراةَ بسيرةٍ وســـريرةٍ   محسودتينِ وســـارَ سيرَ رئيسِ
وأسلافِ ساداتٍ سَما بجلوسهم   راسُ الســريرِ ومَسندُ التدريسِ
واوسادو أو استجدُّوا للسخا الــ   منسوخِ طاسِمِ رسمهِ المدَروسِ
ويَسرٌ سارية السحابِ قياسُها   بسماحه وبسيْبه المبــــجُوسِ
والسُحبُ مُمسكةٌ فلستُ أقيسهُا   بسيولِ سيبٌ للسحابِ خَبــــوسِ
فمسَّرةٌ للمُسنتين مســـــاءةٌ   سبقــــتْ لسرحِ سوامهِ والكــيسِ
آنستُ مــــن أستارِ سّدته سنا   قــــبسٍ فسقُــتُ نفيسةَ لنفيسِ
وسَقيتُها سلسْال سحــــرٍ مُسكرٍ   للســـامعيـــنَ وسُقتُها كعروسِ
فاستِحلها واستجِلها حسناءَ ألـــ   بَسها سنا اسِمكَ أحسَن الملبوسِ

1.3 بناء القصيدة:

اهتمَّ النقاد العرب القدماء ببناء القصيدة العربيَّة، وميَّزوا فيها أربعة أجزاء هـي المطلع والتخلصّ والموضوع الرئيسي ثم الخاتمة، وحثّوا الشعراء على الإجادة في هذه العناصر، وجعلوها مقياساً في البراعة الفنية، فقد اشترطوا على الشاعر أن يجتهد في " تحسين الاستهلال والتخلص، وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء " (226) وقد علّق محمود السمرة على ذلك بقوله:" والحديث عن الابتداءات الحسنة في الشعر وحسن التخلص منها والخروج إلى الموضوع ثم الخاتمة هو في الواقع حديث عن الوحدة في القصيدة العربية " (227). وغير أن إحسان عباس يرى أنَّ هذه الوحدة وحدة شكلية تقوم على التّدرج والتسلسل الذي يفضي فيه موضوع إلى آخر بعلاقة تسمّى التخلص، بحيث تتركب القصيدة في النهاية في أقسام أساسية (228).

وتنبَّه النقاد المعاصرون إلى ضرورة الملاءمة بين هذه الأجزاء فقد عدَّ ابن الأثير ذلك دليلاً على حذق الشاعر، وقوّة تصرّفه، حيث تكون معانيه آخذة برقاب بعض " من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ أفراغًا "(229).

وأغلب قصائد المدح في شعر ابن عُنين تسير على نسق واحدٍ من البناء حيث جعل كلّ قصيدة منها أربعة أقسام: مقدمة وتخلص وموضوع وخاتمة، وقد يتخلل القصيدة بعض الموضوعات الأخرى ذات العلاقة بدواعي القول فيها من ذلك قصيدته التي أولها: (230)

لو لم يخالطْ يومَ بينك أدمعي قاني دمي ما كنتُ إلا مدِّعي

وقد قالها يمدح الأشرف موسى بن الملك العادل، وجاءت مقدّمة القصيدة غزلاً حزينًا رائعا، يقوم على الضّراعة والتوّسل والتنصّل من ذنب لم يقترفه الشاعر. وقد صاغه الشاعر في لفظ رائق، وعبارة سلسة وتصوير جميل كما في قوله:

قد صحَّ عندك شاهدٌ من عَبرتي فسل الدُّجى ونجومَهَ عن مضجعي

عاقبتني بجنايةٍ لم أجنها ظلماً وكم من حاصدٍ لم يزرعِ

قد صحَّ عندك شاهدٌ من عَبرتي فسل الدُّجى ونجومَهَ عن مضجعي
عاقبتنــي بجنــايةٍ لم أجـنــها ظلمــاً وكم من حاصــدٍ لم يزرعِ
ومنعت طيفك من زيارة عاشقٍ حاولـــت مهجتــه فلــم يتمنَّــعِ
وأمالكَ الواشـــي ولولا غِــرَّةٌ كان الصبــى سببــاً لها لم تخدع
فجمعت أثقال الصدود إلى النوى فوق المــلامِ إلى فــؤاد موجــعِ

ويخلص الشاعر من هذا الغزل الحزين الشاكي إلى شكوى الأيّام وشـــكرها، الشكوى لأنها جارت عليه وظلمته، والشكر لأن حوادثها قذفت به إلـــى رحـــاب الملك الأشرف؛ وهنا يتخلص الشاعر إلى المدح من غير تكلف، بحيث لا يشعر القارئ بالانتقال من المعنى الأول إلاّ وقد دلف إلى المعنى الثاني لقوّة الممازجة والالتئام يقول:-

فلأ صبرنَّ على الزمان وجوره صبرَ امرئٍ متجملٍ لم يخضع
ولا لبســنَّ من التجلُّــد نثــرةً حصــداءَ تهــزأُ من سوابغ تُبَّعِ
ولأشكــرنَّ حوادثــاً قذفتْ بآ مالـــي إلى الملك الهمام الأروع

ومع أن الشاعر أحسن التخلص من الغزل إلى المــدح، إلاّ أن ثمــة ســؤالاً يُطرح: ما العلاقة بين مقدّمة القصيدة التي تُغلفها مشاعر الحزن والأسى وبـــين معاني المدح المشحونة بمعاني الشجاعة والقوة ؟ فهل هو التقليد الفني.

إنّ النظرة الفاحصة في القصيدة تبيّن أنّ الشّاعر اختار لها مبنىً قائمــاً علـــى التضادّ فالمقدمة تشي بالإخفاق في حياة الشّاعر الخاصة ومعاناته في سعيه، والمدح يتحدّث عن التفّوق والتقدّم في دولة الممدوح، وكأن هذه الدّولة هي الملاذ الذي يأوي إليه الشّاعر، ومناط الاستقرار الذي يخرجه من تلك الحياة المضطربة القلقة، لذا فقد قرن الشّاعر معاني المدح بهمومه الذاتيّة حيث قال:[231]

فضفــا عليَّ ظـــلالُ أبلجَ ماجدٍ ضافي لباسِ المجد صافي المشرعِ
ورأيتُ أحسنَ منظرٍ وخبرتُ أطـ يب مـــخبرٍ وحللتُ أرفعَ موضـــعِ
في ظلّ وضَّاح الجبين سميــذعٍ مـــن نسلِ وضَّاح الجبين سميــذَعِ
الأشرف الملك الذي بذل النـــدى مـــن كفّـــه طبـــعٌ بغيـــر تطبـــعِ

ويستطرد ابن عُنين في المدح حتّى إذا ما أراد أن ينهي قصيدته راح يجمل ما فصّله فيها، متدرّجاً بالقارئ إلى البيت الأخير، فإذا ما وصل القارئ إليه، شعر أنها توقّفت وأحسّ بالاكتفاء، يقول:-

وافيتُه والسيلُ قد بلغ الزُّبى ... عندي وورْدُ العمر رنق المشرعِ
فبلغتُ من نعماه ما لا ينتهي ... أملي ولم يطمحْ إليه مطمعي
ونهى الحوادثَ أنْ تلم بمنزلي ... وصروف دهري أن تطوف بمربعي
فغدوتُ أُنشد جودَه متمثّلاً ... ونوالهُ مثل السُّيول الدُّفَّعِ
ولقد دعوتُ ندى الكرام فلم يجب ... فلأ شكرنَّ ندىً أجاب ومادعي

ويلاحظ على بعض قصائد المدح لديه تعدّد الموضوعات فيها، كما في القصيدة التي قالها يمدح الملك العزيز طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن، فقد استهلها بالغزل بالمؤنث في عشرة أبيات إذ يقول: (232)

لا تعرضنَّ لضيّق المُقلِ ... فتبيتَ من أمنٍ على وَجَلِ
واتركْ ظباء الترك سانحةً ... لا تعترضْ لحبائلِ الأجَلِ
فمتى يُفيقُ وقيذُ نافذةٍ ... مشحوذةٍ بالسحر و الكحلِ
لايوقعنَّك عذبُ ريقتها ... أنا من سُقيتُ السُّمَّ في العسلِ
من كلّ مائسة منَّعمة ... غرثي الأياطل فعمة الكفل
خطرتْ بمثلِ الرمحِ معتدلٍ ... ورنتْ بمثلِ الصارمِ الصقلِ
وتنفَّستْ عن عنبرٍ عبقٍ ... وتبسَّمتْ عن واضحِ رتلِ
خوذٌ تعثَّرُ كلما رقصتْ ... من شعرها بمسلسل رجلِ
بيضاءُ تنظر من مضيقةٍ ... سوداءَ تهزأُ من بني ثُعلِ
وبليَّتي من ضيقِ مُقلتِها ... إنْ خيف فتكُ الأعين النُّجُلِ

ثم انتقل بعدها إلى شعر الخمر في أربعة أبيات و يستطرد بعدها إلى وصف الطبيعة في ستة عشر بيتًا.

تسعى بصافيةٍ معتَّقة ... تبدو لنا في الكأس كالشُّعلِ
هجرتْ بلوذانا مهاجرةً ... وتنصّلتْ من غلظة الجَبلِ
وتعتَّقتْ في آبلٍ حُقُبًا ... لم تُمتهنْ مزجًا ولم تُذلِ
ودنتْ كأنَّ شعاعها قبسٌ ... بادٍ وإنْ جلَّتْ عن المثِلِ

ومن ثم يتلطف في الانتقال إلى المدح في تسعة أبيات، ومما يلاحظ على هــذه القصيدة قلة أبيات المدح وقد استقبح النقّاد هذه الظاهرة وعدّوها من عيوب المدح ومن هؤلاء ابن رشيق إذ يقول:" من عيوب هذا الباب أن يكثر التغزل ويقل المدح" (233) يقول (234)

ملِكٌ زهتْ أيامُ دولتهِ الـــــــــ غراءِ وافتخرتْ علـــى الدَوَلِ
يغشى الوغى والحربُ قد كشرتْ للمـــوتِ عن أنيابها العُصُلِ
ملِكٌ صـــــــــوارمُـــــه رسائلهُ إنَّ الصوارمَ أبلـــغُ الرســـلِ
ملِكٌ قصرتُ عـــــــن مدائحــــهِ شعري وعنــــد نوالهِ أملي

وقد لجأ ابن عُنين في خاتمة قصيدته إلى المثل حيث يقول:

سفهاً بحـــــــلمي إن تركتُ أتــِ يَّ السيلِ واستغنيتُ بالوشلِ

وثمة قصائد أخرى تخلّص فيها الشّاعر من المقّدمات الغزليَّة، حيث كان يلــج في الموضوع مباشرة، ولا سيمّا في القصائد التي قالها في تمجيد أبطال الحــروب الصليّبية وقصائد الرثاء والحنين والهجاء.

ويلاحظ على استهلالات هذه القصائد أنَّ الشّاعر كان يكثر من استخدام الأساليب الإنشائيّة كما في قوله:-

ــ يا دهرُ ويحكَ ما عَدا مَّما بــــدا أرسلت سهم الحادثات فأقْصدا (235)

ــ لا يخدعَّنكَ صـــــحةٌ ويَســـــارُ مـــا لا يدومُ عليكَ فهو مُعارُ،(236)

ــ أهاجكَ شوقٌ أم سنا بارقٍ نجدي يُضيءُ سناهُ ما تُجِنُّ من الوجدِ(237)

ــ ذراها إذا رامتْ مُعَاجاً إلى الحمى فقد هاجَ منها البرقُ داءً مكتّما(238)

ــ يا برقُ حيِّ إذا مررتَ بعـــــزّتا أهلـــي وإن زادوا جفاً وتعنُّتـــا(239)

ــ سلوا صهواتِ الخيل يومَ الوغى عنَّا إذا جُـــــهلتْ آياتُنا والقنا اللُّدْنا(240)

ولا ريب في انَّ هذه الأساليب تحقّق التواصل الأدبّي بين القارئ والقصيدة كما تحقّق الاستجابة الأوّلية للنص لان من طبيعة هذه الأساليب أنها تقيم علاقة لغويــة

ووجدانية بين الشّاعر والمتلقي. وقد اتسمت هذه القصائد بالوحـــدة الموضـــوعية حيث تدور القصيدة حول محور واحدٍ تنشدّ إليه خيوطها جميعاً ،من ذلك قصـــيدته التي أوّلها :-

لا يخدعنك صحةٌ ويَسارُ　　　مالا يدومُ عليكَ فهو مُعارُ

فنقطة البداية في القصيدة، وهو المطلع، حددت غرضها المحوريّ وهو رثـــاء الأمير بدر الدين الجعبري الوالي بقلعة دمشق، وغدت هذه النقطة مركـــز جـــذب تدور حوله بقيّة أجزاء النص، وتتعلّق به بصورة أو بأخرى، وقد استخدم الشاعر أساليب عدّة لتحقيق هذا الغرض من ناحية، وتحقيـــق التـــرابط والانســـجام بـــين عناصر النص من ناحية أخرى، ومن هذه الأساليب اســـتخدام ضـــمير الخطـــاب المفرد من بداية النصَّ وحتى نهايته (الله جارك، أبكي عليك، ضاق بك الضريح، يضيق بك الثري ولكم برأيك....) [241] فالمطلع مفتاح القصيدة فإذا أمسك الشاعر بزمام قصيدته هجم على موضوعه والمطلع أول ما يقع في السمع مـــن القصـــيدة والدال على ما بعده. [242]

اللهُ جارُكَ يا ابنَ يوسفَ ثـــاوياً　　　وسقى ضريحكَ وابلٌ مدرارُ

أبكي عليكَ ولو وفتْ لك أدمـــعي　　　لتعجبتْ من مدّهـــا الأنهارُ

ولكم برايكَ من ورائك قد ســـرى　　　نحو الأعادي جـــحفلٌ جرَّارُ

واستخدام الأساليب الإنشائية الانفعاليّة بأنماطها المتعددة.

لا تغتررْ بالدهر إنْ وأفاك في　　　حـــــالٍ يسرُّكَ إنه غـــرَّارُ

انظرْ إلى من كان قبلك واعتبرْ　　　ستصيرُ عن كَثَبٍ إلى ما صاروا

كما استخدم الشاعر لازمة أسلوبية تكررت في مواقع محدّدة من النص تمثلت في أسلوب النداء المتلوّ باسم المرثيَّ (بدر).

يا بدرُ كنتَ لنا اليمينَ وما عسى　　　تُغني إذا مضتْ اليمينُ يسارُ

ثم يعود إلى الصيغة نفسها بعد بيت واحد:

يا بدرُ ضاقَ بكَ الضريحُ وطالما　　　ضاقتْ على عزَماتكَ الأقطارُ

ثم يعود إليها بعد عدد من الأبيات:

يا بدرُ لو أبصرت بعدك حالنا　　　لشجاك ما جاءتْ به الأقدارُ

وهذه الطريقة في التعبير أضفت على القصيدة تياراً شعوريًا حزيناً، وأتاحت للشاعر بعد كلّ بيت أن يتوقف للتعبير عن أحزانه وأشجانه، والحديث عن مآثر المرثي والفراغ الذي تركه كما في قوله: (243)

سُرّتْ أعادينا وأدرك حاسدٌ　　　فينا مُناهُ وقلَّتِ الأنصارُ

كنا نُخاف ويرتجي إحساننا　　　أعداؤنا ويعزُّ فينا الجارُ

ما العيشُ بعدك بالهنيء ولوصفتْ　　　فيه الحياةُ ولا الديارُ ديارُ

هيهات أن يلتذَّ جفني بالكرى　　　من بعدِ فقدك أويقرُّ قرارُ

أو أرتجى خِلاّ سِواك أبثُّه　　　الشكوى وتُحفظُ عنده الأسرارُ

وترتب على ذلك أن طال نفس الشاعر في قصيدته دون أن يخلّ ذلك بوحدة الموضوع فيها.

وطول النفس –نسبياً– من السمات التي تميزّ قصائد ابن عُنين بصورة عامة وهذه جعله يميل في قصائده إلى الجانب التحليلي أكثر من ميله إلى التركيز على عكس مقطوعاته، لذلك كان يقلب المعنى على وجوه مختلفة ليستوفي جوانبه، كما في الأبيات التالية التي تدور حول معنى كلي وهو كرم الممدوح:

قال:–(244)

أأخاف من فقر وجود لأشرفِ الـ　　　سلطان في الآفاق قد ملا الملا

الواهبِ الأمصارَ محتقراً لها　　　إن غيره وهب الهِجانَ البُزَّلا

ما زار مغناه فقيرٌ سائلٌ　　　فيعود حتى يُستماحَ ويُسألا

يا أيها الملكُ الذي إنعامُه　　　لم يبق في الدنيا فقيرًا مُرْمِلاِ

ملك غدا جيد الزمان بجوده　　　حالِ ولولاه لكان معطَّلا

فالإشادة بكرم الممدوح هو مدار هذه الأبيات، وقد توّسل الشاعر بأساليب مختلفة ليقرب للأذهان حقيقة هذا الكرم من ناحية، ويضيف على الأبيات التلوين

الأسلوبي من ناحية ثانية، فهو يستخدم في الأبيات الأسلوب الحواريّ الذي أخرجها مخرج الحكاية القصيرة، كما يستخدم – حيناً– العبارات بمعناها المباشر، وتارة يميل إلى الصور البيانية، وحينًا يعمد إلى الأسلوب الإنشائي الانفعالي، وحينًا يستخدم الأسلوب الخبري التقريري.

ومما يتعلق بالأسلوب التحليليّ في بناء بعض قصائده، ميل الشاعر الحواري أحيانًا كما في الأبيات التالية التي يحاور بها محبوبته وقد همّت بالرّحيل: (245)

يا راحلاً والقلبُ بين رحـــالـــه   يقتاده حفظاً لعهد مـــضُيّع
هلاّ وقفتَ على محّبك حـــافظاً   عهد الهوى فيه وقوفَ مودّعِ
كيف السبيل إلى السلوّ ولم تُــعدُ   عقلي عليَّ ولم تدعْ قلبي معي

غير ان جلّ شعره في السخرية والهجاء والنقد الاجتماعي جاء في مقطوعات صغيرة تعبر عن فكرة واحدةٍ وتحمل تياراً شعورياً واحداً. وقـد جـاءت هـذه المقطوعات أشبه ما تكون بالوثبات الشعورية التي تعبرٌ عن نفسية الشاعر الثائرة المتمردّة. ويبدو أن طبيعة الموضوع كانت تقتضي مثل هذا الأسلوب ليكون أقوى تأثيراً، وأكثر شيوعاً بين الناس.

وقد تفنن ابن عُنين في بناء مقطوعاته، فقد جاء بعضها على صـورة حكايـة بسيطة تتسم بالحركة الصّاعدة التي تصل إلى نهاية محددة تقف عنـدها ويكتمـل المعنى.

كما في قوله في بدرا لدين مودود. (246)

جاءَ الشتاءُ وليسَ عنديٍ جُبَّةٌ   فطفقتُ أطلبُ دار بــدرا لدين
فتصحَّفتْ لمَّا فراها حـــبةً   فبـــدَا يُواصـــلُ زفرةً بأنينِ
وشكا نياط فؤاده وحـــرارةً   في قلبهِ تُربي على سجّيـــنِ
وغدتْ فرائِصهُ تهزٌّ كأنَّها   سَعفٌ عرتهُ الريحُ في تشرينِ
فشكرتُ ربي لو فراها جُبّةً   لقتلتـــــهُ عمداً بلا سكــين

ويستعين ابن عُنين في بعض مقطوعاته الهجائية بالسخرية، القائمة على مفاجأة القارئ بمعنى طريف أو صورة طريفة كما في قوله يتهكم بشرف الدين يعقوب الذي كان يُسمع الحديث بجامع دمشق.

يقول: -(247)

رأيتُ النبيَّ عـــليه السـلامُ فقمـــــتُ إليهِ وقبَّلتُهُ
فقال أيعقوبُ يروي الحديــــث فقلتُ نعمْ قال ما قلتُهُ

ويتخذ ابن عُنين أسلوب السخرية التهكمية في بعض المقطوعات، حيـث يلجـأ إلى أسلوب الذم بما يشبه المدح غير أنه سرعان ما يفاجئ القارئ بمعنـى جديـد يقلب دلالة كل ما سبق، كقوله (248) في القاضي الفاضل حين يهجوه بمثـل هـذه البراءة الماكرة التي تستهدف أساسًا للنّيل من رجولته وشرفه.

حاشا لعبدِ الرحيمِ سيدنا الـ فاضل مّما تقولهُ السَّفـــلُ
وتبَّ من قال إنَّ حدْبَتَــهُ في ظهرِهِ من عَبيدهِ حـــلُ
هذا قياسٌ في غير سيــدنا يصحُّ إنَّ كانَ يحبلُ الرجلُ

ومن أساليب السخرية من هذه المقطوعات تصوير العيوب الجسدية وإبرازها في صور مضخمة هازئة، إذ يلجأ الشاعر إلى انتقاء جزء بارز من جسم المهجو فيسلط عليه الضوء ويجّسده بصورة مبالغ فيها.

قاصداً من وراء ذلك إلى الهزل والإضحاك، ومن الشواهد التي يمكن أن تساق في هذا المقام قوله (249)

وللنفيس الصوفيِ عَـــنفْقة محلوقةٌ للمحـــالِ والكذْبِ
كليحةِ المـــــرّ كلمَّا حُلقت نمتْ نموَّ الزُرُوعِ والعُشبِ

وقال: (250)

وحين أبصرتُ دولةَ الأحدب الفا ضلِ أربتْ على عُلا الشُهبِ
فقلتُ للمفلسينَ ويحــــــكمُ تحادَبُوا فهـــي دولةُ الحُدْبِ

وقال: (251)

سلطاننا أعـــــــرجٌ وكاتبُهُ ذو عمشٍ والوزيرُ منُحدبُ
وصاحبُ الامرِ خلُقهُ شرسٌ وعارضُ الجيش داؤهُ عجبُ
وحاكمُ المسلمينَ ليس لـــهُ في غير غُرمولِ أسودٍ أربُ
والدَّولعيُّ الخطيبُ معتكفٌ وهو على قشرِ بيضةٍ يثبُ

وعلى الرغم من أن المقطوعة كانت هي الشكل الغالب على شعر الهجاء إلا أن بعض هذا الشعر قد اتخذ شكل قصائد طوال.

وعند النظر في بنية هذه القصائد، يلاحظ تحرّرها من البناء التقليدي للقصـــيدة العربية القديمة التي تقوم على مقدمة قد تطول وقد تقصر، ومـــدخل ينزلـــق منـــه الشاعر إلى موضوعه الرئيسي ثم خاتمة ملحوظة. (252)

فقد تضمنت قصيدة الهجاء في هذا الإطار موضوعاً واحداً، وتلتقي مع المقطوعه في وحدة الفكرة والموضوع، غير أنها مالت بصورة أكثر تفصيل واستقصاء المعاني، والتنويع في الجزيئات.

ويبدو أن الشاعر قد ترك لخواطره وأفكاره أن تنثال دون أن يقيـــدها أو يحـــد منها فجاءت من حيث المضمون والشكل معاً على قدر من البساطة والعفوية.

ومن القصائد التي تمثل هذا المنحى، قصيدة ابن عُنين في أهل دمشـــق التـــي سمّاها (مقراض الأعراض).

وهي قائمة على بناء الصورة الطريفة الساخرة وعلى الوصف التفصيلي الـــذي تمثل في حديث الشاعر المستفيض عما كان قائمًا.

فقد استهلها بما يتلاءم مع موضوعها، فأضلعه تنطوي على كرب ومقلته مســـتهلة باكية. قول: (253)

أضالعٌ تَنطوي علـــى كَرْبِ قلـــــةٌ مُستهِلَّةُ الَغـــرْبِ
شوقاً إلى ساكني دمشقَ فلاَ عدتْ ربُاها مواطِرُ السُّحبِ
منازلٌ ما دعــــــا تذكُّرها إلاَّ ولبَّى علـــى النَوى لُبّي

يصف الديار والحنين إليها، ثم يمضي في هجاء أهل دمشق فلم يترك مثلبةً إلاّ ألصقها بهم، فقد تناول فيها الطبيب والخطيب والقاضي بالنقد اللاذع، والهجاء المر وذلك بالطعن في صفاتهم الخُلقية، بأسلوب جاء ساخراً.

متى أرى سيدي الموفَّق يختا — ل ضُحى في عراصها الرّحبِ
يمشي الهُويني وخلفهُ عمرٌ — يختالُ مثلَ المَهاهِ في السربِ
وسيدي كلمَّا تأمَّلهُ — تاهَ وأبدى غرائب العُجْبِ
تجعمُسٌ قلَّ من يناظرهُ — في الناس إلاَّ تعنفقُ الرَّحبيْ
والعزُّ عبدُالرحيم سيدُنا — مُطيلسٌ للقضاء بالشربِ
وخُطبةُ الدولعيِ كم جلبتْ — للناسِ من فادحٍ ومن خطْبِ
والعسقلانيُّ في عمامتهِ — دلائلٌ عن سخافةِ تُنبى

والقصيدة ذات موضوع واحد، وهو تصوير فساد أهل دمشق وانحرافاتهم وهي كذلك ذات مغزى واحد تمثل في رغبة الشاعر في الكشف عن تلك الانحرافات وتبصير أولي الأمر بها، وعلى الرغم من طول القصيدة حيث بلغت (52) بيتاً إلاّ إنها تميزت بوحدة متماسكة، وشعور عاطفي متجانس، وقد جنح الشاعر في بناء قصيدته إلى أسلوب إسهابي، تمثل في الحاحه على النقد واستيفاء جوانبه.

فيقدّم صوراً متعدة لتعديات هؤلاء الناس.

ويستكمل ابن عُنين قصيدته مقذعاً في ألفاظها مشتطاً في معانيها، ثم يختتمها ببيتين داعياً الناس أن يصبحوا حدبا كي يعلو.

وحين أبصرتُ دولةَ الأحدب الفا — ضلِ أربتْ على عُلا الشُهبِ
فقلتُ للمفلسينَ ويحكمُ — تحادَبُوا فهي دولةُ الحُدْبِ

وعلى الرغم من أن ألفاظ خاتمته كانت عنيفة، فقد جاءت متناسبة مع غرض الشاعر في قصيدته، فاطرد فيها النسق وتوالى المعنى، ليحقق الغاية المرسومة لها.

2.3 الأسلوب واللغة:

ثمة ارتباط ما بين موضوع النّص الأدبيّ، وأسلوبه، فالأسلوب الذي يناسب شعر المديح لا يصلح للهجاء، وهكذا في بقية الموضوعات التي يتطلب كل منهـا نسـقًا تعبيرياً يتلاءم مع موضوعها.

وقد تحدث النقّاد القدامى عن الصلة بين الأسلوب والأغراض، الشعرية فقد رأى الجرجاني " أن تقسّم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلـك كافتخـارك ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطانك، ولا هزلك بمنزلة جـدّك، ولا تعريضـك مثل تصريحك، بل ترتب كلاً مرتبته وتوفيه حقه " [254]

ويمكن أن نميز أسلوبين رئيسيين في شعر ابن عُنين، الأسـلوب الأول: وهـو الأسلوب التقليدي، والأسلوب الثاني يمكن أن يطلق عليه الأسلوب الشعبيّ الميّسـر، أما الأسلوب الأول فيتمثل في شعر المدح والرثاء والحنين، وهو يمتاز مـن ناحيـة الشكل بالحفاظ على البناء الهيكليّ للقصيدة العربيّة من حيث الاسـتهلال والـتخلص والخاتمة كما سبق أن أشير إليه، بالإضافة إلى الحفاظ على فصاحة الكلمة، وجزالة العبارة، ومتانة التركيب. مع البعد عن التعقيد اللفظي والمعنويّ والميل إلى الوضوح والحفاظ على الصياغة الشعرّية الجميلة، وقد عبّر ابن عُنين عن هذا الأسلوب فـي ثنايا قصائده على شاكلة قوله يصف قصيدة مدح قالها في الوزير صفي الـدين بـن شُكر: [255]

هذا المديحُ الذي ما شانهُ خَلَلٌ كلاً ولا شابهُ في مـجدكمَ كَذبُ
معنىً بديعٌ وألفاظٌ مُنقـّحةٌ غريبـةٌ وقوافٍ كلُّها نُخَبُ

ويصل إعجاب ابن عُنين بشعره وبالطريقة التي ارتسمها في بنائه حـدّ المغـالاة كما في قوله يفاخر بعض خصومه في إحدى قصائده المدحية: [256]

سحرٌ ولكنّ هاروتاً وصاحبَه ما روتَ ما نهيا فيه ولا أمر
كم قمتُ في مـجلس الساداتِ أُنشدُه فلم يكن لحسودٍ في عُلاه مـِرا
عجبتُ من معشرٍ كيف ادّعوا سفهاً من بعدما سمعوهُ أنهم شـُعَرا
لولا التُّقى قلتُ لا شيءٌ يعادلـهُ أستغفرُ اللهَ الا النملُ والشُّـعرا
انا الذي سار في الدنيا له مثـلٌ أهديتُ من سفهٍ تمرًا إلى هَجَرا

فاذا ما انتقلنا إلى الاستقراء الداخلي لشعره، فإننا نقف فيه على نماذج شعرية رائعة، تجري على نسق من العبارة جميل، وأسلوب غير متكلّف كما في قوله في الحنين إلى دمشق (257)

ويا حبذا الوادي إذا مـــا تدفّقتْ ... جداولُ باناسٍ إليــه تسيلُ
وفي كبدي مـــن قاسيون حزازةٌ ... تزولُ رواسيه ولـــيس تزولُ
إذا لاحَ بـــرقٌ من سنير تدافقت ... لُسحب جفوني في الخدود سيولُ
فللهِ أيامـــي وغصنُ الصبا بهـــا ... وريقٌ وإذ وجـــهُ الزمانِ صقيلُ
هي الغرضُ الأقصى وإن لم يكن بها ... صديقٌ ولم يُصفِ الـــودادِ خليلُ

فالصياغة الشعّرية في هذه الأبيات بسيطة واضحة، وهي تستمد بســاطتها من استخدام الألفاظ المألوفة، وعدم التّوسع في التقديم والتــأخير، وقـد حــاول الشاعر أن يضيف على أبياته مســحة جماليّــة باســتخدام بعــض التشــبيهات والاستعارات، وإثارة وجدان القارئ باستخدام الأساليب الإنشائية ويظهــر ابــن عُنين عناية واضحة في انتقاء الأبنية والصيغ التي تلائم أشعاره ملاءمــة دقيقــة وتوفّر لها موسيقا تعبيرية تناسب حالته الوجدانيّة، فهو حين يستحضـــر صـــورة الحبيب في بعض أشعاره التي يتشوّق فيها إلى دمشق، ويتأمل في علاقته معــه حيث يختار الألفاظ الرقيقة والموسيقا الهادئة، كما في قوله: (258)

وأهيفَ عسالِ القوام كــــأنه ... قضيبٌ على دعصٍ من الرمل قد نما
تحمّل في أعلاهُ شمساً أظلَّـــها ... بليلٍ وأبدى من ثناياهُ أنجُـــما
وما كانَ يدري ما الصدودُ وإنما ... تصدّى لـــه الواشونَ حتـــى تـــعلّما
فأصبحَ غيري يجتني شهدَ ريقـــهِ ... شهيّاً وأجنـــي من تجنّيه علقمـــا
وخافَ على الوردِ الذي غرسَ الحَيا ... بوجنتـــه من أنْ يُنالَ ويُلـــثما
فسلَّ عليه مرهفاً من جفونـــهِ ... وأرســـلَ فيه من عذاريهِ أرقمـــا

فالأبيات تموج رقّة، وهي تسير في نغمة انسيابيّة تتدرج نحــو الانخفــاض الملحوظ عن نهايتها، إذ اختار لها الشاعر موسيقا البحر الطويل وهـــي موســـيقا مرنة، وجعل لها رويّا مفتوحاً يوحي بتصعّد أنفاس الشاعر وضـــيقها بالإضـــافة إلى الاستكثار من الأصوات ذات الجرس الهادئ، والصور الجميلــة والتقســيم

الموسيقي الذي أضفى على الأبيات انسجامًا إيقاعيًا واضحاً. ويستخدم ابن عُنين طرائق الأقدمين في مخاطبة الأصحاب سواء أكانوا حقيقيين أم وهميّن للتعبير عن مواقفه وانفعالاته، ويستخدم من هذا الأسلوب معاني جميلة يصوغها في ألفاظ وتراكيب تدلّ على شدة إحساسه بالعلاقات بين الكلمات وتآلفها معاً في سياق شعريّ مؤثر، كما في الأبيات التالية:(259)

فيا صاحبيْ نجواي بالله خبّرا رهينَ صباباتٍ عسيرٌ يسيُرها

أمن مرحٍ مادتْ قدودُ غضونها ببهجتها أم أطربتها طيورُها

خليليَّ إنَّ البينَ أفني مدامعي فهل لكما من عبرةٍ أستعيرُها

لقد أُنسيتْ نفسي المسرات بعدكم فإنْ عادَ عيدُ الوصلِ عاد سرورُها

على أنَّ لي تحت الجوانح غلّةً إذا جادها دمعٌ تلظَّى سعيرُها

وقاسمتماني أنْ تعُينا على النوى إذا نزواتُ البين سار سؤورُها

ففيم تماديكم وقد جدَّ جدُّها كما تريان واستمرَّ مريرُها

وأصعبُ ما يلقي المحبُّ من الهوى تداني النوى من خُلةٍ لا يزورُها

فالأبيات تأتلف في جوّ عاطفي متسق، وقد تعاقبت فيها الألفاظ ذات الدلالات الوجدانية المتداخلة على نحو أتاح فيها نغمًا حزينًا، وإيقاعًا متموجًا يجّسده هذا الحوار البسيط الذي جاء في طرف واحدٍ بين الشاعر وخليليه، وما تخلله من استفهامٍ حائر، ونداء يدلٌ على التشبث بالبعيد الغائب.

ومن السّمات الفنية البارزة في شعر ابن عُنين استخدام (كم) الخبرية على نحو يسترعي النظر في مواقف المدح والرّثاء والحنين على حدٍ سواء، للتعبير عن قوة مشاعره وحدتّها، سواء أكان ذلك للتعبير عن الإعجاب أو الحزن أو الشوق، كما في قوله: (260)

كم ليلةٍ كالبحر جبتُ ظلامَها عن واضح الصبح المنير فأسفرا

وقوله (261)

كم حادثٍ خفَّت حلومُ ذوي النُّهى خوفاً وجأشُك فيه أربط من حِرا

وقوله: (262)

كم موقفٍ ضنكٍ فرجتَ مضيقةَ   وطريقُه لخفائه قد أشكلا
كم يومِ هولٍ قد وردْت وطعمُه   مرٌّ المذاق كريه نار المصطلي

وقوله: (263)

فكم أمردٍ خطَّ الحسامُ عذارَه   وكم أشيبٍ كان النجيعَ خضابُه
وكم قد نزلنا ثغر قومٍ أعزَّةٍ   فلم نرتحلْ حتى تداعى خرابُه
وكم يوم هولٍ ضاق فيه مجالنا   صبرنا له والموتُ يُحرق نابُه

أما القسم الثاني من شعر ابن عُنين، وهو شعر الهجاء والنقد الاجتماعي فقد امتازت صياغته بالبساطة والوضوح، والنزول إلى مفردات الحياة اليومية والتقاط الألفاظ التي يتداولها العامة، وتظهر بعض هذه السمات في الأبيات التالية يهجو فيها بدر الدين الجزريّ وكان يسمى لاجين: (264)

وراحلٍ سرتُ في صحبٍ أؤمّلهُ   تبارك اللّهُ ما أشقى المساكينا
جئنا إلى بابه لاجينَ نسألهُ   فليتنا عاقنا موتٌ ولا جينا
لاجينَ نسألُ ميْتاً لا حَراكَ بهِ   مثل النصارى إلى الأصنامِ لاجينا

ويسرف ابن عُنين في تصيد التعبير الدّارج الذي يؤثر في معاصريه ويرضي أذواقهم، ويصل ذلك إلى مستوى التداول الحياتي النمطيّ، كما في قوله الأبيات التاليه التي قالها في الجمال بين شيث وقد عزل وجعل ابنه مكانه: (265)

قد فسدتْ صنعةُ ابنِ شيثٍ   منذُ أزاحوهُ عن قُمامهْ (266)
كانتْ بَواتيقُه النصارى   وكان إكسيرُه القمامهْ
وقد تولىَّ ابنُهُ عليها   ما أشبه الفرخَ بالحمامةْ

لذلك فقد تسرب إلى شعره بعض الألفاظ العامية التي كان يتداولها الناس في عصره مثل " العواني، العلق، النصب، دق حنك" (267)

كما بث فيه بعض التعابير الدارجة، كما في قوله " فخلصهم وخلصني "(268)

" وقلت الهوى يومان: يوم له ولي " (269) " رجعنا بالرغائب والغرائب"(270)

وعلاج الأبوال أقصى مرامي "(271) " الواعظ البلخي كان قرابتي "(272)

وتقترب بعض أشعاره من المستوى التداولي لفظًا وتركيبًا، بحيث يخيّـل إلـى القارئ إنها كلام مستمد من ألسنة الناس في عصره كما في قوله في ابـن السَّـائق وكان على دار الزكاة وقد بنى داراً: (273)

وسائقُ الصبيان أضحى ابنُهُ ... يَسرقُ من دارِ الزكاة الذهـبْ

لا تسألوهُ واســألوا دارَهُ ... فإنَّها تُخبرُ عَمــَّـا نهبْ

ويلجأ ابن عُنين إلى تقييد القافية أحيانًا، لتصبح المقطوعة قريبــة مـن الكـلام المنثور، وتلفظ الكلمات على النحو يشبه نطقها في الأداء اليومي، كما في قوله في الموفق بن المطران وغلامه عمر(274)

قالوا الموفقُ شيعيٌّ فقلتُ لـهم ... هذا خلافُ الذي للناسِ منهُ ظهرْ

وكيف يصبحُ دينُ الرفضِ مذهبهُ ... وما دعاهُ إلى الإسلام غيرُ عمـرْ

ولا تبتعد الأبيات التاليه عن هذه الطريقة في التعبير إلا في استخدامه التوريـة بقصد إثارة سخرية المتلقّين واسترعاء انتباههم، وقد قالها في الشريف الكحّال وكان قد أحبّ غلاماً ينبز بالجمل (275)

فدينكَ قلْ للشريفِ الشـهابِ ... وإن شاطَ غيظاً فـلا تحتفلْ

تُوالي الحنابلة القائلـينَ ... بأن يزيدَ إمـام عَدَل

وتزعُم انَّك منِ عترةِ الـ ... وصيّ وأنـت تحبُّ الجَمَلْ

وتكثر مثل هذه التوريات بالأعلام في شعر ابن عُنين، ولا ريب في أنها تضـفي على شعره قدرًا من الغموض الشفّاف ولكنه غموض يرمي إلى السخرية من المهجوّ من ناحية، وحفز القارئ من ناحية ثانية، كما في قوله، لمّا فتح الملك الكامل محمـد دمشق بعد الملك المعظم عيسى وأعطاها الملك الأشرف موسى (276)

وكنّا نُرجّي بعد عيسى محمداً ... لينُقذنا من لاعج الضُرّ والبلوى

فأوقعنا في تيهِ موسى فكلُّنا ... حيارى ولا منٌّ لديه ولا سلوى

وحتى يضفي ابن عُنين على أهاجيه صفة الواقعية في الوصف فقد كان يـدرج فيها أسماء مهجوّيه، وقد كثر ذلك على نحو واضح، بل كـان يـدرج فـي بعـض مقطوعاته عدّة أسماء يعارض بينها، ويشبّه بعضها بعض على سبيل السخرية كمـا في قوله يهجو ابن شيث وابن نفاية (277)

زعموا أنني هجوتُ ابن شيث كيف أهجوهُ وهو في العلمِ آيهْ
إنما قلتُ إنّهُ حسنُ الظـــنّ حليمٌ كأنّهُ ابنُ نفايـــــــــــهْ

بل إنه يعتمد أن يجعل الاسم في نهاية المقطوعة ويبني قافيتها على الحـــرف الأخير منه، فتبدو بعض هذه المقطوعة ضرباً من العبث اللغوي الذي يعبّــر عــن الرفض والسخرية، كما في قوله في فتى اسمه (بكمش): [278]

لو أنّ قاضي الحبّ ممن يرتشي ما بتُّ أشكو من ظُلامة بكمشِ
قمرٌ على غصنٍ يميلُ به الصبا فكأنه من خمرِ عانة مُنتشـــــي
وكأن طُرّتهُ وضوءِ جـــــبينه صبحٌ توضَّح تحت ليل أغطش
عبث الغرامُ بقلب عاشقة كـــما عبث النسيم بصدغهِ المُتشــوّش

وهذا النمط بإدراج أسماء الاعلام في أشعاره الهجائيّة كان يدفعـــه أحيانًـــا إلـــى الخروج عن قواعد اللغة ليحقق المجانسة الصوتية' كما في قوله مخففًا التضعيف في سيّما للتجانس مع كنية (ابن سيما)[279]

ولا تُودعْ متَاعكَ عند عَــدلٍ ولا سيما إذا كانَ ابنَ سيما
فكم أودعتهُ أيداً شديدَ الــــ قوى فأعاده نضْواً سقيماً

كما ويستغل ابن عُنين أسماء مهجوّيه، ويولّد منها عن طريق التـــداعي الحـــرّ صيغاً شعرية ساخرة، تبدو فيها أفعال هؤلاء وصفاتهم مناقضـــة تمامـــاً لمـــدلالات أسمائهم كما في قوله في البيتين التاليين اللذين استثمر فيهما لقبي المهجوّين في بناء تراكيب متعاكسة تجسّد إحساس الشاعر بالتناقض، وقال يهجـــو ابنـــي الحرســـتاني الملقبين بالصائن والعلاء [280]

ابناء الحرستانيّ في لقبيهما ضدُّ الذي نُعتابه بين المــــــلا
فمهتِّكُ الأستارِ يُدعى صائنًا ولسفلةُ الســفلاءُ يُدعى بالعـــلاِ

وعمد الشاعر إلى ركائز تعبيريّة، تقيم صلة وجدانّية ولسانّية بين شعره ومتلقيـــه فمن هذه الركائز التي كان لها حضور واضح في أهاجيه (قال، وقلت)[281] وهـــي تنشئ صورة حواريّة مباشره بين الشاعر والآخر، بالإضافة إلى الأساليب الإنشائية " وهي أساليب من طبيعتها استحضار الآخر، وبناء جــوّ تفــاعلي بــين الشـــاعر

والمتلقي، وإنتاج تأثيرات مقصودة فيه. وهنا نلمح أيضًا حضور لفعل الأمر المشتق من القول " [282] كما في قوله [283]

فديتكَ قلْ للشريفِ الشهـــــابِ وإن شاطَ غيظاً فلا تـــحتفلْ

وقوله : [284] قولوا لزينِ الأمــــــنا أخوكَ بالأمسِ زنـــــاْ

قوله: [285] قل للنجيب صرمتَ حبلَ مودّتي ملاً وقلبي في ولائكَ مخلصُ

وقوله [286] قل للنجيب ولا تعبأ بلـــحيته وإن تعاظَم بالكنديّ وافتــخرا

وهذه النزعة الحواريّة في شعره كانت تفضي أحيانًا إلى صياغة بعض مقطوعاته على نحو قصصي بسيط فيه قدر من التشويق والإثارة وتصوير النـوازع النفسـية لشخصية المهجو بالإضافة إلى التعبير عن السخرية منه، كما في الأبيات التالية التي قالها في بدر الدين مودود شحنة دمشق: [287]

جاءَ الشتاءُ وليسَ عندي جُبَّةٌ فطفقتُ أطلبُ دارَ بدر الدين
فتصحّفتْ لمّا فراها حـــبَّةً فبدا يواصـــلُ زفرةً بأنينِ
وشكا نياط فؤادِهِ وحــرارةً في قلبهِ تُربي علــى سجّينِ
وغدتْ فرائصهُ تهزُّ كأنّـــها سعفٌ عَرَتْهُ الريـــحُ في تشرينِ
ينسى فيسكنُ مابه وتعودُه الــ ذكرى فيُصرَعُ صرعة المـــجنونِ
فشكرتُ ربي لو قـــراها جُبَّةً لقتلتُهُ عمدًا بلا سكـــينِ
وخرجتُ أمشي القَهقرَى مُتستّراً بقرون حاجبه الزكـــي ابـــن القيني

ومع أن المحسنات البديعية كانت غالبة على معظم الشعر في عصره إلا أن ابن عُنين لم يكن يتطلبّ هذه المحّسنات انسجامًا مع ميله إلى البســاطة والســهولة فــي شعره، باستثناء اهتمامه بإيراد الطباق والمقابلة في أشعاره الهجائية، ولعل هذا يعود إلى أن هذا الشعر الهجائي كان يصوّر أوجه المفارقــات والتضـــاد فـــي الســلوك الاجتماعي، كما في قوله: [288]

أنـــا وابنُ شيث والرشيدُ ثلاثةٌ لا تُرتجي فينا لخَلقٍ فائـــدهْمن كل من
قصرتْ يداهُ عن النَدى يوم الَجدا وتطولُ عنـــد المائدةْ

واستثمر ابن عُنين ثقافته المتنوعة في تشكيل معانيه، وبناء صوره وظهرت هذه الثقافة بصورة واضحة في أشعاره، كما في قوله في صبيّ نبتت لحيته مستوحياً معرفته بالمذاهب الإسلامية في توليد المعاني الطريفة[289]

وصاحب قال في معاتبتي ... وظنَّ أنَّ الملالَ من قِبلي
قلبُكَ قد كان شافعي أبدًا ... يا مالكي كيفَ صرتَ معتزلي
فقلتُ إذ لجَّ في معاتبتي ... ظلمًا وضاقت عن عذره حِيلَي
خدُّكَ ذا الأشعري حنّفني ... فقال من أحمد المذاهبِ لي

ويتضّح في الأبيات التالية المصطلحات اللغويّة لتصوير غربته وتنقله في البلدان، والتعبير عن إحساسة بالضآلة وعدم التقدير: [290]

أجدَّك ما تزالُ بكَ الرواحلْ ... تنَقّلُ في الهَواجرِ والهَواجلْ
إذا أمسيتَ في بلدٍ غريباً ... ترومُ إقامةً أصبحتَ راحلْ
كأنكَ في الزمانِ اسمٌ صحيحٌ ... جَرى فتحكمَّتْ فيه العواملْ
مزيدٌ في بنيهِ كواو عمروٍ ... ومُلغى الحُكمِ فيه كراء واصلْ
وحقُّك أنْ يُلازِمَك ارتفاعٌ ... لانَّكَ للنّدى والجودِ فاعلْ

ومع وضوح النزعة الشعبية في شعره، واقتراب نماذج كثيرة من تراكيب العامة ومعانيهم، فإن قسماً منه بالمقابل تضمّن بعدًا معرفياً وثقافياً، تمثل بانفتاح بعض الشعراء على نصوص التراث، وتوظيفها في التعبير عن مضامين شعرهم وهو أمر يعكس جانباً من ثقافة أولئك الشعراء، وتمثلهم لتراث أمتهم، وتواصلهم معه.

وقد كان في مقدمة النصوص التي استدعاها ابن عُنين، القرآن الكريم، الذي كان استدعاءه لافتاً للنظر، باعتباره شكلاً من تعامل الأدباء مع تراثهم الديني الذي كان تواصلهم معه ــ في هذه الفترة بالذات ــ تواصلاً حميماً وذلك بتأثير من صراع العقائد الذي تأجج بفعل الحروب الصليبيّة.

هذا فضلاً عن استحسان ذوق العصر وقبوله لمثل هذا التأثير [291].

وقد جاء توظيف الشاعر لهذا الخطاب القرآني على غير صورة، منها: أن يلجأ الشاعر إلى الاقتباس المباشر دون تغيير أو تبديل على لفظ الآية الكريمة المقتبسة

وقد عرّفه صاحب حسن التوسل" أن يضمّن الكلام شـيئاً مـن القـرآن الكـريم والحديث ولا ينبه عليه للعلم به "[292].

وأحيانًا يلجأ الشاعر إلى التصرف في لفظ الآية الكريمة عن طريـق التقـديم والتأخير أو التبديل، وقد كان هذا الأسلوب أكثر شيوعًا.

وثمة إشارات إلى قصص قرآنيّة أخرى، تمّ توظيفها في هذا الشعر.

ويفسر ابن عُنين من خلال الاقتباس كثيراً من جوانب الحياة المتباينة، فـالقرآن مصدر الإلهام والبلاغة والإعجاز، فضلاً عن بيان مدى التقدير والاحتـرام للقـرآن والفهم السليم.

فيحاول الشاعر أن يرسّخ بعض المفاهيم العقدية، لتذكير الناس بها من خلال ما يقبسه من القرآن الكريم.

ومن الشواهد على ذلك قوله في معرض حديثه عن الدنيا وبيان عظمة الخـالق موظفاً النص المقتبس لتوضيح ذلك الصورة قال: [293]

لولا الرَّدى كانت الدنيا لمن سبقا   اللهُ يبقى ويَفنَى كلُّ ما خَلقا

يهوى الحياةَ بنو الدنيا وقد علموا   أنَّ الحياة عناءٌ دائمٌ وشـقا

ما مرّ من عمرِ الإنسانِ في حزنٍ   أو في سرورٍ كطيفٍ في الكرَى طرقا

إن الدنيا جيفة يتكالب عليها البشر، ويتعلقون بها، ولكن الله حكم على عبـاده بالموت، فهو الباقي فهذا الفهم متأتٍّ من قوله تعالى * كُلُ مَن عَلَيهَا فانٍ ويَبقَى وجهُ ربّكَ ذو الجَلالِ والإكرامِ *[294]

ويواصل ابن عُنين حين يقول [295]

كلٌّ إلى الله صائرٌ وعلى   مـاقدَّم المرءُ قبله قـادمْ

يُدركُ ما قدَّمتْ يداه إذا   ماتَ فإمَّا جذلان أو نادمْ

اقتبس الشاعر الشطر الأول من قوله تعالى * ألا إلى الله تصيرُ الأمورُ *[296]

والشطر الثاني من البيت من قوله * يوم ينظرُ المرءُ ما قدَّمتَ يداهُ * [297]

ومن قوله * ولتنظر نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ * [298]

فهذا الاقتباس يدخل الفزع والهلع في نفوس خصومه، وبه يكون التأثير أوقع في نفوسهم. ومن اقتباسات الشاعر التي وظفها لخدمة موقفه، وتقوية علاقته مع الحكّـام

وتعريضه بهم، مبيناً عظمة الخالق وأنه تبارك وتعالى هو الرزاق المجزل للعطـــاء، المجيب للدعاء وقال:(299)

تباركَ اللهُ أعطى الناس ما سألوا   صفواً وكالَ لهم بالزائد الوافي
فالحمدُ للهِ شكراً أنني رجـــــــلٌ   ما باركَ اللهُ لي إلاَّ بأضــيافي

اخذ هذا المعنى من قوله تعالى * وإذا سألك عبادي عنّي فــإني قريــب أجيــب دعوة الداعِ إذا دعانِ * (300)يقدم الشاعر مطلبه مؤيداً بنص قرآني، بحيــث يكــون تأثيره أقوى. إن اقتباس الشاعر لبعض النصوص القرآنية يشف عــن فهــم عميــق لمعانيها ودلالاتها، وعن بصيرة ثاقبة لاستخدام مدلولها.

فمن هذه المعاني أن الأبصار لا تفيد وحدها، إذا ماضلت البصائر طريق الرشد والهداية قال (301)

لا يخدعنَّك صحةٌ ويســـــــارُ   مــا لا يدوم عليك فهو مُعارُ
يغشى الفتى حُبُّ الحياةِ وزينة الـــ   دينــا وينسى مــا إليه يُصارُ

فالبيت الثاني استمد المعنى من قوله تعالى * أفلم يسيُروا في الأرض فتكــون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعُون بِها فإنها لا تعمى الأبصار ولكــن تعمــى القلوبُ التي في الصدور * (302)

ومن أنواع الاقتباسات التي شاعت في شعر ابن عُنين، اقتباس الرموز والألفــاظ الدينية مثل:

عصا موسى، هاروت، المسيح، يوم الحشر، عذاب السعير، ليلة القدر الجهاد في سبيل الله ، فعل الطاعات .

مآربُ الكل فيه فهو عصـــــا   مـــوسى لكلٍ منهم إليه وطـــرُ. (303)
سحرٌ ولكنَّ هاروتأوصـــــاحَبه   ماروتَ مــا نهيا فيه ولا أمــرا (304)
فوالله يا عيسى بمن شئت منــهما   لعنت ولــو كنت المسيح ابن مريم (305)
طَرقتْني الضيوفُ فيها وقدبـــــ   تُّ مــن الجوع في عذاب السعــير (306)
فسائرُ أيامي لديكم مـــــواسمٌ   وكلُّ الليالي عندكم ليلةُ القــــدرِ (307)
جهادٌ لوجه الله في نـــصر دينهِ   وفي طاعةِ اللهِ العزيزِ احتســـابهُ (308)
الحـــــمدُ للهِ واجــب الشكرِ   قـــــد اهتدى سيّدي أبو نصرِ (309)

واتبَّــــَــع الحقَّ حينَ لاحَ لــهُ فجرُ الهــُــــــدَى من دُجنَّةِ الفجرِ

إن استحضار مثل هذه الرموز يعكس غرضاً نفسياً يكشف ما خفي مــن فكــر الشاعر، وغمض في رأيه تجاه الحكّام وولاة الأمر، حيــث لا يســتطيع أن يجهــر ببعض الشيء خوفًا من العقاب، لذلك قام باستحضار حصيلة من الرمــوز الدينيــة ورأى في ذلك متنفساً له يبدي من خلالها رأيه في مجالات الحياة المختلفة.

ومن التقنيات الفنية المرتبطة بأسلوب ابن عُنين ولغته تقنية "التضــمين " وقــد عرّفه ابن رشيق " قصدك إلى البيت في الشعر أو القسيم فتأتي به في آخر شــعرك أوفي وسطه كالتمثيل "(310).

وتعد هذه الوسيلة الفنية انعكاساً لاتصال الشعراء، بموروثهم الأدبيّ، وتوظيفهم له بما يخدم تجاربهم المعاصرة وينسجم مع دلالة نصوصهم الشعرية.

وتكثر هذه الظاهرة في شعر ابن عُنين بصورة واضحة، حيث إن ابــن عُنــين يتمتع بثقافة شعرية واسعة، وذلك بإطلاعه على مكنون فحول الشعراء ممن ســبقوه سواء أكانوا من العصر الجاهلي أو الإسلامي، وإن هذا الإطلاع على شعر الفحول، فضلا عن فهمه العميق لمضمونه ومعرفته لمحاسنه، جعله يغترف منه الجيد ليضمنه في شعره دون إشارة لذلك اعتمادًا على الشهرة.

ويأخذ التضمين عنده أشكالاً عدّة، فإما أن يضمن البيت كاملاً، وإما شطرًا منــه وإما أن يأخذ المعنى وبعض الألفاظ وسنعرض لبعض ما ضمنه ابــن عُنــين فــي شعره.

يضمن لبيتين من شعر جميل بن معمر العذري (جميل بثينه) قال: (311).

دخلتُ على ابن الشهر زوريّ ليلةً وقد أُغلقت دون الوزيرِ المغالقُ

فعاينتهُ ولهانَ يرطلُ فيشــــــةً ويُنشدها والخدُّ بالدمــعِ غارقُ

"وماذا عسى الواشونَ أن يتحدَّثوا سوى أنْ يقولوا إنني لكِ عاشقُ

نعمْ صدقَ الواشونَ أنت حــبيبةٌ إليَّ وإنْ لم تصفُ منكِ الخلائقُ"

فقد جاء التضمين في الخاتمة، مقطوعة قصيرة، فتصرّف الشاعر بهذه الأبيــات أي جعلها تأخذ بُعداً جديداً ومساراً مغايراً لسائر النص، فمزج بين التجربتين علــى الرغم من تباينهما، فقد سخّر تجربة جميل الغزلية لخدمة غرضه فيكون السب أشــدّ

إيلامًا، وأكثر وقعاً على النفس، وذلك حين جمع بين صورته الساخرة الماجنة التي رسمها لابن الشهرزوري، وصورة شوق المحب التي رسمها جميل فقد صرف الشاعر وجه البيت المضمن عن معنى قائله إلى معناه الذي أراده.

ويختم قصيدة يمدح فيها الملك الأشرف موسى بن العادل، ببيت من شعر ابن حيوس حين يقول [312]

وافيتُهُ والسيلُ قد بلغ الزُّبى ... عندي ووِرْدُ العمر رنق المشرعِ
فبلغتُ من نعماه مالا ينتهي ... أملي ولم يطمح إليه مطمعي
ونهى الحوادثَ أن تُلمَّ بمنزلي ... وصروفَ دهري أن تطوفَ بمربعي
فغدوت أنشد جودَه متمثلاً ... ونوالُه مثل السُّيول الدُّفَّعِ
" ولقد دعوتُ ندى الكرام فلم يجب ... فلأ شكرنَّ ندىً أجاب ومادعي" [313]

القصيدتان قامتا على المديح، وطلب النوال والكرم، فقد اتحدتا اتحاداً كاملاً هذا يدل على اطلاع ابن عُنين على نص ابن حيوس وفهمه له مما جعله يمهد مطلع قصيدته، حتى يصل إلى البيت المضمّن، لذلك جاء منسجماً في السياق مع ما قبله مكّملاً له في اللفظ والمعنى، وخاتماً له، حيث منحه بعداً جديداً في المعنى في مقام الكرم، حيث جعله من غير سؤال فهذا المعنى الذي أضافه ابن عُنين إلى تجربته في نهاية القصيدة، مما جعل ممدوحه يستحق الشكر، وبهذا أصبح البيت المضمّن بمنزله المحور الذي دار حوله وأراد ابن عُنين إثباته.

وقد ضمنّ ابن عُنين شعره بأنصاف الأبيات، بعد تمهيد يجعلها منسجمة مع ما قبلها موصله لما بعدها، فمنها ما قاله [314] يهجو المؤيد بن القلانسي والجمال بن مهدي الكاتب.

ولماَّ رأينا المغربيَّ بخدمةِ الـ ... مؤيدِ مثلَ الراهب المتُبتَّلِ
وأخلقَ فيها عمرُه فكأنّهُ ... " قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ" [315]
سألناهُ هلْ في ظله لكَ مرتعٌ ... " وهل عند رسمٍ دارسٍ من معوّل "
وأشفى غليلاً منهُ عزٌّ شفاؤُهُ ... " بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكل"

فقد انفتح ابن عُنين على قصيدة امرئ القيس، حيث جعلها ماثلة أمامه وهو ينظم قصيدته، ينهل منها ما يخدم غرضه، فربط بين النصين في البيت الثاني

جاء مطلع قصيدة امرئ القيس " قفا نبك " وضمنها قصيدته لتعبــر عــن ذاتــه الساخرة من المؤيد موظّفًا ما ضمنّه ليكمل ما بدأه، حيث يتحقق الضياع وعــدم الفائدة، فالقائم على خدمة المؤيد مهما أخلــص فــي عملــه، يشــبّه بالراهــب في معبده، ومثله كمثل الباكي على الأطلال التي درست في ذكرى الحبيب.

وفي البيت الثالث يستفسر الشاعر عن الفائدة من خدمة الجمال للمؤيد فيجيب في الشطر الثاني المضمّن من شعر امرئ القيس " وهل عند رســم دارس مــن معول "، فتحقق الفائدة في خدمة المؤيد مثل تحققها من الآثار القديمة الدارسة

ويرى الغذامي " أن النص الشعري لوحة فسيفسائية من الاقتباسات وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى " (316).

وقد امتص ابن عُنين من تجارب غيره، وأجاد في حسن تصرفها، ومــن ذلــك تضمينه عجز بيت للأعشى، حيث أحسن فيه الربط ما بين الصدر والعجــز وذلــك قوله (317) يرثي حماراً له.

ليلٌ بأولِ يومِ الحشر مــــتَّصلُ	ومقــــلةٌ أبدًا إنسانُها خَضلُ
وهل أُلامُ وقد لاقيتُ داهيــــةً	يَنهُدُ لو حملتْها بعضها الجُبلُ
ثوى المصكُّ الذي قد كنت آملهُ	عونــًا وخُيّب فيه ذلكَ الأملُ
قد كان أنْ سابقتهُ الريحُ غادرها	كأن أخمصها بالشوك ينتعلُ (318)

لا عاجزاً عند حملِ المثقلات ولا (يمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحلُ)

اتخذ ابن عُنين من تجربة الأعشى في وداع محبوبته هريرة حين لم يعــد مــن الوداع بد وسيطر الضعف عليه، فاستحضر صورتها وتذكر ماضيها فصورها وأخذ ابن عُنين هذه التجربة الحزينة وسخرها لخدمة تجربته في رثاء حماره.

والتجربتان تبرزان موقف الشاعرين في مقام الوداع والفراق، فالأعشى تركتــه محبوبته، ورحلت فآلمه ذلك وأحزنه، والشاعر قد مات حماره فآلمه وأحزنه.

3.3 الصورة الشعرية:

تعدّ الصورة الشعرية من أبرز عناصر البناء الشعري، وهي جزء ضروري من الطاقة التي تمدُّ الشعر بالحياة وهي"أساس الشعر وروحه وهو قائم عليها وهي جزء من مبنى القصيدة، وهي وسيلة الشاعر لتجسيد إحساسه وتعبيره عن حالة نفسية معينة يعاني منها إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة".[320]

وقد اهتم الشعراء الشاميّون في القرن السادس عامة بالصورة، وبذلوا جهودًا فنية كبيرة في إخراجها، حيث ابتدعوا العديد من الموضوعات الجديدة، وابتكروا الكثير من المعاني، وقدّموا لسامعهم المزيد من الصور الشعرية، وقد تعددت موضوعات الصورة في شعر ابن عُنين وكانت الحياة اليومية وما تزخر به من مشاهد مجالاً واسعًا لتشكيل الصورة لديه، ومن هذه المشاهد التي يرسمها صورته وقد عيّد في ثوب خلقٍ في حين عيّد الآخرون في ثياب جديدة تفضّل بها الأميرمودود عليهم:[321]

يا مُوردَ الرمح ظمآنًا ومُصدرهَ   يومَ الكريهةِ ريَّانًا من العَلَقَ
قد عيَّد الناسُ في نعماكَ في جُدُدٍ   لكنني بينهم عيَّدتُ في خلَقِ

ورسم صورة لفتى مليح قد زاره وطلب منه شرابًا لصديق له وذلك في قوله.[322]

قد زارني من بني الأتراكِ مختفيًا   ظبيٌ على غيرِ ميعادٍ له سَلَفَا
يهزُّ من قده رمحًا علــى نَقَوَيْ   رملٍ ينوءُ به ثقلاً إذا انعطفا
سقتْ عوارضهُ جفناهُ ســاريةً   فأنبتتْ عارضاهُ روضةً أُنُفا
كأنهُ دُرَّةُ الغوَّاص كادَ يــرى   من قبلِ رؤيتها في كفهِ التَلَفا

ويكثر ابن عُنين من رسم الصور التي تعبرعن السلوك اليومي الذي كان يمرّ به، فيأخذ صورة من لعب الصبيان حيث يقول:[323]

بقدّ كما إن شئتما فتطاعــنا   بكلّ رُدينيّ القَوامِ مــثقَّفِ
وإنْ شئتما بالنبلِ أن تتناضلا   فدونَكما بالرشقِ من كل أوطفِ
ولا تُثقْلا خصريكما بــمهّندٍ   ففي كل جفنٍ منكما حدُّ مرهفِ

وقد تنوعت المصادر التي استمد منها ابن عُنين مادته التصويرية، وقد جاء أكثرها مستوحى من الحياة اليوميّة بجوانبها المختلفة، فقد قرن النبت الأحوى وقد انبجس

من تحته الماء، وتضوعت رائحته الطيبة بثياب عروس فاح عبيرها وذلك في قوله: (324)

ومنبجسٌ في ظلّ أحوى كأنه ثيابُ عروسٍ فاحَ منها عبيرُها

وشبه النبت وقد زيّن ربوع دمشق بمطارف حسانٍ مزركشة، وذلك في قوله (325)

منازلُ أنسٍ ما أمحَّتْ ولا أُمِّحتْ يمرُّ الغوادي والسواري سطورُها

كأنَّ عليها عبقريَّ مـــطارفٍ من الوَشي يُسديها الحَيا ويُنيرهـــا

وتستدعي هيئة قصور دمشق وما تتصف به من جمال وضخامة وصورة السفن التي تسخر عباب البحر(326).

ولاحتْ قصورُ الغوطتين كأنها سفائنُ في بحرٍ يعبُّ عُبابُه

ويبدو صاحب حماة عجوز سوء تحث ابنتها على عصيان زوجها، ونهيق حماره لحنًا جميلاً يطربه كما يطرب المزموم والرمل... (327)واســـتوفى الشـــاعر أجـــواء الحروب التي سادت آنذاك في تشكيل صوره، وكأنه يعكس بذلك أنماط الشعور التي تغلغلت في وجدان الأمة فيصور جيوش صبره ضعيفة أغرت خيول الهجر بالإغارة عليه إذ يقول:(328)

ورأى جيوشَ الصبرِ وهي ضعيفةٌ فأغارَ في خيلِ الصدودِ وأجلبا

ويأخذ من الرمح صفة الاعتدال ليضفيها على صورة الخمرة حيث يقول:(329)

خطرتْ بمثلِ الرمحِ معتدلٍ ورنتْ بمثلِ الصارمِ الصقِلِ

ويستمد ابن عُنين من عالم الحيوان مادة لبعض صوره، إذ وجد في هذا الحقل ما يكفل له تحقير المهجو والطعن فيه، حيث يستغل بعض صفات الحيوانـــات لتوجيـــه بعض المعاني الهجائية من خلالها. وتتكرر صورة الأفاعي والعقارب على لسان ابن عُنين ويخرجها من إطار التخصيص إلى التعميم الذي يشمل بني الدنيا كلهّم. حيـــث يقول: (330).

إذا اختبرتَ بني الدنيا وجدتَهمُ عقاربًا وثعابيناً وأو زاغـــــا

وان تأمّلتَ أخبارًا أتوكَ بها رأيت زُورا وروّاغًا وأو زاغا

ويقيقول: أحد المغنين بعواء الكلب.إذ يقول: (331).

وابن هلالٍ إذا تنحنح للـــ غناءِ يعوي مُشابةِ الكلب

(332).بن شيث بتيس ذي قرن عظيم، وابن عدلان بـــالجرذان، وأحـــدهم قـــد تعرض له بالعقرب، وجعل القاضي الفاضل كلبًا، وقرن من يُـدعى نظـــام الـــدين وأبناءه بحماره الذي مات وجعلهم تعزية له من مصابه الجلل.(332).

وتكثر الصور الدينية في شعر ابن عُنين، وكان يخلّصها من دلالاتهـــا الأصـــلية ويوظفها في سياق مغاير كما في قوله مشبّهًا الميل في يد أحد الكحالين بعصا موسى التي تفجّرت منها عيون كثيرة، إذ يقول: (333).

ودعوكَ بالصَّباغ لمَّا أنْ رأوا يُعشي العيونَ لديكَ ماءُ أصفرُ

وبكفّكَ الميلُ الذَي يحكي عصا موسى وكم عينٍ به تتفـّــجَّرُ

وعلى الرغم من إعجاب ابن عُنين بالطبيعة الشامية وارتياحه إليها في كثير من أشعاره، ولا سيما في شعر الحنين إلا أن هذه الطبيعة تبدو متجهمـــة فـــي شـــعره الهجائي، فقد شبه الشاعر عنفقة النفيس الصوفي تنمو سريعًا كلما حلقت بنمو الزرع والعشب إذ يقول: (334).

وللنفيس الصوفي عَنفَقَةٌ محلوقةٌ للمحالِ والكِـــذْبِ

كلحيةِ المرَّ كلّما حـــُلِقَتْ نمتْ نموَّ الزُروعِ والعُشْبِ

وشبه إحدى الرقع التي وصلته من صديق بنهار المصيف حرّا وكربًا وليل الشتاءِ برداً وطولاً، إذ يقول: (335).

وصلتْ منكَ رُقعةٌ أسأمَتْني وثنتْ صبريَ الجميلَ كَليلا

كنهارِ المصيفِ حرًا وكربًا وليالي الشتاء بردًا وطُولا

وقرن أحد البخلاء بصخرة لا تلين وطود لا تميل جوانبه إذ يقول: (336).

فما كانَ إلاّ صخرةً لا تُلينها الـــ رُقاةُ وطوداً لا تميلُ جوانبُهْ

وقد نوّع الشاعر في أساليب بناء هذه الصور ، فأقام بعضـــها علـــى الوصـــف المباشر حيث يعمد إلى انتقاء الكلمات التي تثير في الذهن هيئات موحية ومعبرة في آن واحد .

فعندما قدم من اليمن إلى دمشق طالبة اصحابة بوليمة فقال لهم: تعالوا غدًا فلمـــا حضروا لم يجدوه في منزله، وقد ترك لهم رقعه فيها: (337).

تجوَّع لي الشيخُ الزكيُّ وجاءني ... مع الشمس قبل الشمس يتلوهما النجمُ
وقد سرَّحا ذقنيهما وتسربــــــلا ... من الوشي ما ازدانت حواشيه الـرقمُ
وجاءتْ بنو عبدانَ طرًّا كأنمـــا ... لهم في الذي استصحبتُ من عَدنٍ قسمُ
وجاءَ أبو الفضلِ الأمينُ وعــبدُهُ ... كذئبَي غضًا قد مسَّهم من طوىً سـقمُ
وأقبلَ شمسُ الدينِ يسعى مُبادرًا ... وفي كُمـــه للنهبِ مــن أدمٍ كــمُّ
جُموعٌ لو أنَّ السدَّ أعرضَ دونهم ... بدا منهمُ في جانبـــتيْ رتقــه ثلمُ
يرومون خبزي والكواكبُ دونــه ... لقد ضلَّ عنهم رأيُهم ونـــأى الفهمُ
أما علموا أنَّ الذبابةَ لا تـــرى ... طعامي وأنَّ الفارَ عندي لها لُجـم

فهذه المقطوعة تصف بدقة هيئات هؤلاء الضيوف، وترسم مشهدًا مباشـرًا لهـم حيث قدموا مبكرين (مع الشمس) غير أنَّ الصورة توحي بـأكثر مـن الحركـة الخارجية والرسم الحرفي للمنظر، فهي تشفّ عـن الاسـتعداد النفسـي للضـيوف والهواجس التي كانت تمور في نفوسهم، فالفعل (تجوّع) يوحي بانقطاعهم مدة.

طويلة عن الأكل، حتى يتناولوا قسطًا كبيرًا من الطعام، وتقيم الكنية واللقب فـي البيت الرابع (أبو الفضل الأمين) تعارضًا حادًا مع الصورة التشبيهية في الشـطر الثاني من البيت نفسه (كذئبي غضا)

وتقوم معظم صوره على التشبيه القريب وهي في أغلبها أحادية العنصر، بحيـث تبدو الصورة ذات حدّين متقابلين، كما في قوله في أبناء الملك العادل: (338)

من كلّ وضّاحِ الجبين تخالُهُ ... بدرًا فإن شهد الوغى فغضنفرا

وقوله مشبهًا الحواجب بالقسيّ والنظر بالأسهم التي تنطلق منها (339).

ما أرسلتْ قوسُ الحواجب أسهمًا ... من لحظه إلا أصـابتْ مقتلا

وقد تتوالى هذه التشبيهات البسيطة في سياقٍ واحدٍ فيتشكل من مجموعها صورة كلية ذات أبعاد متنوّعة، كما في قوله يصف مشهدًا طبيعيًا جميلًا: (340)

أنىّ اتجهتَ رأيتَ ماءً سائحًا ... متدفّقًا أو يانـــــعًا مُتهّدلا
فكأنما أطيارُها وغصونُهـــا ... نَغَم القيان على عرائس تُجتلى
ويمرُّ معتلُّ النسيم بروضها ... فتخالُ عطّارًا يــُحرّق مندَلا

فقد عادل في الأبيات بين الطبيعة وعناصر متعدّدة، ورسم صورة موسّعة ائتلفت فيها طائفة من التشبيهات التّي تثير حواسّ متَعدّدة، فهناك الصورة الحرّكية التي تجمع بين الانسياب والتدفق، والصورة السمعيّة، (أطيارها نغم القيان) والصورة الشمية.. (فتخال عطارًا يحرّق مندلا) (والصورة الموحية بالألوان يأنف متهدلاً.. والقت زهرها).. ويكثر من تشبيه بعض مهجويه ببعض فتعبر الصورة عن سخرية الشاعر بطريقة إيحائية بسيطة.

كما في الأبيات التالية التي قالها في فقيهين في دمشق تناظرا ينبز أحدهما بالبغل والأخر بالجاموس إذ يقول: (341)

البغلُ والجاموسُ في جدلَيهما قد أصبحا مثلاً لكلِ مُناظــر
بَرزا عشيَّة ليلةٍ فتناظـرا هذا بقرنيهِ وذا بالحـافر
ما أحكما غيرَ الصياح كأنَّما لقنا جدالَ المرتضى بن عِساكر
جلفانِ ما لهمـا شبيةٌ ثالثٌ إلا رقاعةُ مدلويهِ الشـاعر

ويلجأ الشاعر في بعض صوره إلى التلاعب بالتشبيه، حيث يجعل المشبه مشّبهًا به، والمشبه به مشبهًا، فيخرج الصورة مثيرةً للتهكم والسخرية كقوله:(342)

وليلٍ كوجه الزاغِ برداً وظُلمةً وطُولاً كقرني يونسٍ وأبي خضرِ
عدمتُ الكَرى فيه وطولَ هُجوده كما عدَم العقلَ البها بن أبي اليُسر

ويتخذ ابن عُنين هيئات مهجويه مادة للتصوير، حيث يعبث بأعضاء جسم المهجو فيصورّها تصوّيرًا مبالغًا به، حيث يقوم بتكبيرها أو تصغيرها، أو يفسرها تفسيرًا يناسب مراده.

ويصف الهيئات والحركات التي تشف عن النوازع الداخلية، يلتقط للقاضي الفاضل صورة خاطفة يظهر فيها وقد تبوّأ مجلسه ويكثر من الحركات المتتابعة مثل جرذ يطل برأسه من حجره.(343)

والعزٌّ عبدُ الرحيم سِيُدنا مُطَيلَسٌ للقضاءِ بالشرب
يظنٌّ رائيهِ أنّهُ جـرُذٌ مُطَلّعٌ رأسهُ مـن الثَقبِ

ويتوقف ابن عُنين في تصوير حدبة القاضي الفاضل، مكبراً هذه الحدبة ومولّداً علاقة تركيبية جديدة عن طريق الإضافة (دولة الحدب) قال:[344].

وحينَ أبصرتُ دولةَ الأحدبِ الفا ضلِ أربت على عُلا الشُهب

فقلتُ للمفلسين ويحكمُ تحادبُوا فهي دولةُ الحُدبِ

وتقوم بعض الصور على التعليلات البلاغية التي تنطوي على السخرية والتهكم كما في قوله [345] ينقل صورة على لسان الآخرين:

حاشا لعبدِ الرحيم سيدنا ال فاضلِ مِمّا تقولهُ السُفلُ

وتبَّ مَن قالَ إنَّ حَدبتهُ في ظهرهِ من عبيدِه حبلُ

هذا قياسٌ في غيرِ سيدنا يصحُّ إنْ كان يحبلُ الرجلُ

وقد اعتمد ابن عُنين على حواسه في بناء صوره اعتمادًا واضحًا، وكانت الصور المرئية التي تعتمد على البصر، مثل اللون والهيئة وانفعالات الوجه والحركة بأنواعها من أكثر الصور دوراناً في شعره، كما نجد صورًا أخرى تتوسّل بالسمع وتصف الأصوات، وصورًا أخرى تتوسل باللمس والشّم كما وقد مزج بين هذه الصور وإخراجها في لوحات فنية متكاملة، فقد ظهرت الصورة الشميّة وهو يصف أرض دمشق إذ يقول: [346].

أرضٌ إذا مَّرتْ بها ريحُ الصَّبا حملتْ على الأغصان مسكًا أذْ فرا

وقال: [347].

إذا الريحُ مرَّتْ في رباها كريهةً حَباها بطيبِ النشرِ فيها مرورُها

ومن الصور البصرية التي أوردها الشاعر قوله:- [348].

عجبتُ للطيفِ يا لمياءُ حين سرى نحوي وما جالَ في عيني لذيذُ كرى

وكيف ترقدُ عينٌ طولَ ليلتها تدافعُ المقلقَينِ الدمعَ والسَهَرا

ومن الصور الحركية التي جاءت في شعره قوله: [349].

عثَّرتَ خلَفكَ كلَّ ذي كرمٍ يجري وراك وأنتَ في مهلِ

ومتى ينالُ عُلاكَ مجتهدٌ هيهاتَ أين التُربُ من زُحَل

ومنها قوله [350].

جاءتْ تودّعني والدمعُ يَغلبُها عند الرحيلِ حادي البينِ مُنصلتُ

وأقبلتْ وهي في خوفٍ وفي دهشٍ   مثل الغزالِ من الأشراكِ يـــنفلتُ

ويصور ابن عُنين التراب بأنه يشفي غليله حين يشمّه، فهذه صورة شـــمّية تحتاج إلى حاسة الشم يصور للمتلقي صورته وهــو يلــثم الثــرى مــاثلاً أمــامهم يقـــــــول (351).

لثمتُ الثرى مستشفيًا بترابهِ   ومن لي بأنْ يشفي غليلي ترابُه

أما الصور السمعية، فعندما يسمع المتلقي هذه الصور يجلجل في سمعه صــوت لهذه الصور، لأنها تنقل الصوت والصورة معًا كقوله: (352).

صليل المواضي واهتزازُ القَنا السُّمْرِ   بغيرهما لا يُجتنى ثمرُ النَّصْرِ

ويورد ابن عُنين في شعره كثيراً من الصور اللونية، التي يسبغ عليهــا ألوانــاً متعددة منها ما قاله: (353).

إلى أبلجٍ كالبدرِ يُشرقُ وجهُه   سناءً إذا التفتْ عليه المواكبُ

وقال (354).

بيضاءُ تنظرُ من مضيَّقةٍ   سوداء تهزأ مـــــــــن بني ثُعلِ

ويكثر الشاعر من استخدام اللون الأسود، ولعل ذلك يعود إلى ما يثيره هذا اللون من كآبة وشؤم لدى ابن عُنين ولما يحمله من دلالات سلبيّة قائمة، فيصوّر ابن عُنين –بالاتكاء على التجسيم – عرض أحدهم أسود متمزّقًا يقول: (355).

ما إنْ مدحُتكَ أرتجي لك نائلاً   فحرمتني فهجوتُ باستحقاقِ

لكنَّني عاينتُ عرضك أسوداً   متمزّقا فقدحتُ فـــي حـــُرَّاقِ

"وقد تتآزر الصور الجزئية جميعا في بناء صورة كليّة حافلة بالحركة والحيـــاة حتى لتتابعها العين والأذن والخيال معًا (356). فيجمع ابن عُنين هذه الصور الجزئيــة ويكوّن منها لوحة متكاملة تتابعها جميع الحواس كقوله: – (357).

تكادُ تخفـــي النجومُ الزهرُ أنفَسها   خـــوفًا ويشرق بَهْرامٌ إذا ذُكـــر

يدعـــــو العُفاةَ إلى أمواله الَجفَلى   إذا دعا غيرُه في الأزمةِ النقَرى

فاعجبْ لبحرٍ غدا في رأسِ شاهقةٍ   من العواصم طامٍ يقذفُ الدُرَرا

وقد أكثر ابن عُنين من التصوير عن طريق التشخيص، فكانت عناصر التشـبيه مما يحيط به كائنًا حيًا أسبغ عليه كل الصفات الإنسانية، وقد برزت قدرته التخيليـة الفائقة في رسم هذه الصور، إذ لوّنها بصور دواخله وانطباعاته وإحساسه

ويبعث الشاعر في الجمادات روح الإنسانية، حيث يضفي عليها طبائع البشر فتبدو محتجة على بعض مظاهر السلوك الاجتماعي كما في قوله ملتمساً تعليلاً طريفًا لذلك:(358)

لمَّا رأى الجامعُ أمـــوالهُ مأكولةً مـــا بين نوّابهِ

جُنَّ فمن خوفٍ عليه غـــدا مسلسلاً مــن كل أبوابهِ

ويشخّص ابن عُنين الريح، فيجعلها إنساناً جاء لبث أخباره إلــى مــن يحــب إذ يقول: (359).

وهبَّتْ لنا ريحٌ أتتنا مـــن الحِمى تحدّثُ عـــمَّا حمَّلتْها قِبابهُ

ويرسم للجبل صورة يتبدّى فيها على هيئة إنسان قد شاب شعره وخضب بالحناء التي تلاشت عنه شيئاً فشيئاً إذ يقول: (360).

وقامتْ جبالُ الثلج زُهراً كأنــها بقيَّةُ شيبٍ قد تلاشى خــضَابُه

وكثرت الصور الاستعارية التي اتخذ ابن عُنين من التشخيص وسـيلة لبنائهـا، وللتشخيص أثر كبير في بث الحياة والحركة في الأشياء الجامدة، يشخّص الشـاعر الدين بإنسان يستغيث إلى الله شاكيًا مما لحق بــه مــن جــور بعــض الأفــراد إذ يقــول: (361).

صَعِدَ الدين يستغيثُ إلى اللــ ــهِ وقالَ الأنامُ قد ظَلَــموني

يَتسمَّوْنَ بـــي وحقّكَ لا أعـ ـرفُ شخصاً منهم ولا يَعرفوني

ويصوّر القرآن الكريم إنساناً يفصح بغضبه عن ضيقه بــالواقع الثقــافي، ومــا يشتمل عليه من خصومات مذهبية، إذ يقول: (362).

مصحفُ عثمانَ صاحَ مـــن حنقٍ رافعُ قدري ما بالُهُ خفضــهْ

الزنكـــلونيُّ صـــار يَخدمني يا ربّ عجّل بالفأر و الأَرَضَــهْ

والله مـــا بي انحطاطُ مــنزلتي وإنما بي شماتَةُ الرَّفضــهْ

الخاتمة

وبعد، فقد تناولت هذه الرسالة بالدرس والتحليل شعر واحد من كبار شعراء الشام زمن الحروب الصليبيَّة، وبيَّنت إلى أيّ مدى تأثرت شخصية الشاعر وشعره بأحداث عصره وحركة المجتمع الشاميّ آنذاك.

فقد جاء شعر الجهاد والمدح لديه تعبيراً عن إحساسه بالقضايا الكبرى التي كانت تشغل الأمة في عصره، ولا سيَّما الجهاد ضدَّ الفرنجة. ومن ثم غلبت على هذا الشعر المعاني الدينية، وصور التغني بالبطولة والأمجاد الحربيَّة... دون أن يغفل الشاعر الحديث في سياق مدحه عن همومه الذاتيَّة.

وعبَّر شعر الهجاء والنقد الاجتماعي عن نظرة غير راضية لكثير من مظاهر السلوك الاجتماعي والسياسيّ في عصره، لذا فقد تعددت النماذج البشرية التي هجاها ابن عُنين لعلّه بهذا الهجاء يوجه أنظارها وأنظار الناس، إلى أنماط من السلوك الذي يراه الشاعر غير قويم.

وسكب ابن عُنين في شعر الغربة والحنين مواجده الشخصية وآلامه الذاتية بسبب نفيه في بلاد الشام، وتنقله في البلدان، وهو شعر يعبِّر عن تجربة فيها قدر طاغٍ من الحسّ الإنسانيّ المرهف.

ولم يخرج ابن عُنين في مراثيه عن المألوف من معاني الرثاء وأفكاره في الشعر العربي.

ورصد ابن عُنين في شعره كثيراً من مظاهر الحياة اليوميّة، ولاسيّما في شعر الوقائع والمحاضرات. إنّ شعر الألغاز، يعبّر في بعض جوانبه عن رغبة في التسلية والإمتاع.

أما من الناحية الفنيَّة فقد التزم ابن عُنين، ببناء القصيدة العربية التقليديَّة، غير أنَّه طوَّع هذا البناء للتعبير عن تجربته الخاصة. كما كَثُرت في شعره المقطوعات القصيرة ولا سيَّما في شعر الهجاء، وهي مقطوعات تصوِّر وثبات نفسه المتحررة وتعبِّر عن رفضه بصورة موجزة مكثَّفة.

وقد اتسم شعره بالبساطة والسهولة والاقتراب من اللغة المتداولة، والشعبية في التعبير، وخاصة في شعر الهجاء والنقد الاجتماعي.

إنّ الصورة لديه سهلة بسيطة لا تقوم على التعقيدات البلاغية، وهي مستمدّة من مشاهدات الشاعر وبيئته.

وأخيرا فإنّ هذه الدراسة كشفت عن شاعر شامي شديد الإحساس ببيئته وعصره ولا سيّما الجوانب السلبية فيها.

قائمة الهوامش

1- ابن الأثير، الباهر :112-123، أبو شامة الروضتين : 241/1.

2- المرجع السابق : 106 .

3- شاور بن مجير الدين الوزير المصري وزير العاضد صاحب مصر، ولّي الوزارة له سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وكان ابتداء أمره أنه كان يخدم الصالح بن رزيك، فأقبل عليه وولّاه الصعيد وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة ظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم ..... انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان : 443/2.

4- الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي، لما وصل شاور من الشام بالعساكر خرج من القاهرة، وقتل يوم الجمعة، وكان قتله عند مشهد السيدة نفيسة، حزّ رأسه وطافوا به على رمح وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ابن خلكان وفيات الأعيان:442/2.

5- أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب بالملك المنصور، أسد الدين عم صلاح الدين..... ابن خلكان، وفيات الأعيان:479/2، ابن خلدون: 282/5.ابن عساكر 358/6.

6- ابن الأثير، الكامل: 337/11.

7- المرجع السابق: 368/11.

8- ابن القلانسي، تاريخ دمشق:473، أبو شامة، الروضتين: 217/1. وإنب حصن من أعزاز من نواحي حلب، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان 1:/258.

9- عمر باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك: 28.

10- أبوشامة، الروضتين: 210/2.

11- ابن شدّاد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: 50.

12- المصدر السابق:51، " وقام المصاف بين العسكريين، فقضى الله أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم، ومَنَّ عليهم، وأطلقهم وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر رمضان سنة سبعين وخمسمائة ".

13-ابن الأثير، الكامل: 427/11، وفي هذه السنة 571هـ العاشر من شوّال كان المصاف بين سيف الدين غازي بن مودود وبين صلاح الدين، بتل السلطان، على مرحلة من حلب على طريق حماة وانهزم سيف الدين.

14- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب:141/2.

15- ابن شدّاد، النوادر السلطانية: 75.

16- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوبا: 188/2.

17- الذهبي، العبر: 251/4.

18- ابن شدّاد، النوادر السلطانية: 160-170.

19- الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: 22وهو صلح الرملة، انظر بنوده في النوادر السلطانية: 234-235.

20- ابن شدّاد، النوادر السلطانية: 160-170.

21- أبو الفداء، البداية والنهاية: 6/13.

22- ابن خلكان، وفيات الأعيان: 420/3.

23- إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام، في عهد الأتابكة والأيوبيين:241

24- قال ابن الأثير " فلا جرم زاد ملكهم، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم، ولعمري أنهم نعم الملوك، ومنهم الحلم والجهاد، والذب عن الإسلام، وفي نوبة دمياط كفاية " الكامل:351/12-352. النجوم الزاهرة:227/6، وانظر خطط الشام: 86/2-87.

25- المصدر السابق: 351/12.

26- ابن الأثير، الكامل: 351/12-352.

27- ابن الأثير، الكامل:356/12.

28- يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية 195.

29-انظر حول تخريب بيت المقدس: ابن واصل مفرج الكروب، تحقيق حسين محمد: 32/4، النجوم الزاهرة: 244/6.

30-الملك الكامل: أبو المعالي محمد بن الملك العادل بن أيوب ملك مصر، توفي سنة 635هـ. انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان: 79/5-89.حول تسليم بيت المقدس انظر الكامل :482/12، مفرج الكروب : 241/4، النجوم الزاهرة : 243/6-244.

31- هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن ابي بكر بي أيوب بن الملك الكامل... من كبار الملوك الأيوبيين بمصر، انظرالذيل على الروضتين، ابن شامة 276/6.

32- الخورازمية فرقة خالفت السلطان غياث الدين كيخسرو صاحب الروم وهربت إلى بلاد الشام، انظر المقريزي، السلوك: ق 1، 255.

33- المقريزي، السلوك: ق302/2-303.

34- الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري :24.

35- ابن الأثير، الكامل: 9 /273-274.

36-رحلة ابن جبير: 255.

37- إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة، والأيوبيين: 323.

38- انظر. محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي: 55.

39- الذهبي، العبر في خبر من غبر: 117/3.

40- أبو الفداء، البداية والنهاية: 26/13.

41- المقريزي، السلوك: 158/1.

42- ابن القلانسي، 494.

43- ابن تغري بردي، النجوم الزهرة:36/8.

44- ابن العميد، شذرات الذهب: 28.

45- ابن القلانسي، تاريخ دمشق: 494-508.

46- ابن شداد، مفرج الكروب: 425/2.

47- ابو شامة، الروضتين: 66/3.

48- الكتبي، فوات الوفيات: 352/2-353.

49- ابن خلكان، وفيات الأعيان: 5-334.

50- أسامه بن منقذ، الاعتبار: 245-289.

51- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: 5، 245، الدلجي، الفلاكه: والمفلوكون: 94، الذهبي تذكرة الحفاظ: 4، 1456، حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: 6، 90 محمد كرد علي خطط الشام: 3، 43، الذهبي، العبر في خبر من غبر: 6، 1222ابن كثير، البداية والنهاية: 137/13 ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 2661/6، ابن طولون، المعزة فيما قيل في المزة: 24، الذهبي الأعلام بوفيات الأعلام: 4255/2، الذهبي، الإشارة إلى وفيات الأعيان المنتقي من تاريخ الإسلام: 332، ابن خلكان، وفيات الأعيان: 14/5-18، ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان: 547/7، المنذري التكملة لوفيات النقله: 337/3، الصفدي الوافي بالوفيات: 83/5، المقريزي، المقفى الكبير: 328/6 ابن نقطة، تكملة الإكمال: 207/4، البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائه السابعة: 51، البغدادي، هدية العارفين اسماء المؤلفين وأثار المصنفين: 113/2 اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان: 70/4، احمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: 222، ابن الغزي، ديوان الإسلام: 351/3 تاريخ ابن الوردي: 133/2، الذهبي، سير أعلام النبلاء: 363/22.

52- الاتابكي، النجوم الزاهرة: 293/6، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 194/29، الذهبي تاريخ الإسلام: 411، ابن سبط الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: 8ق696/2، الزركلي، معجم المؤلفين: 7- 348، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين: 79/11.

53- انظر المصادر في الحاشية رقم (1+2) الصفحة الأولى.

54- الديوان: 239.

55- المرجع السابق: 85.

56- المصدر السابق: 142.

57- توفي بعد سنة 505هـ وفيات الأعيان: 298/1.

58- رضا كحالة معجم المؤلفين: 79/11.

59- اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان: 70/4، سير أعلام النبلاء الذهبي: 363/22.

60- الديوان: 4.

61- ابن خلكان، وفيات الأعيان: 14/5، ياقوت الحموي، معجم الأدباء: 2661/6.

62- المرجع السابق: 9.

63- الديوان: 94.

64- ابن الكثير، البداية والنهاية: 138/13.

65- الديوان: 79.

66- الديوان: 33.

67- زغلول، الأدب في العصر الأيوبي: 296.

68- سيف الإسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين، صاحب اليمن، كان رجلاً شجاعًا، كريماً، مشكور السيرة حسن السياسة، ابن خلكان، وفيات الأعيان: 523/2، انظر ابن الأثير: 480/11 مفرّج الكروب: 105/2.

69- الديوان: 34.

70- المرجع السابق: 33-40.

71- الملك العزيز عماد الدين: أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين، وكان من عقلاء بني أيوب، مفرّج الكروب، ابن واصل 82/3.

72- ابن خلكان وفيات الأعيان: 524/2.

73- الديوان: 223.

74- العزيزان يقصد بهما طغتكين بن أيوب صاحب اليمن والملك العزيز عثمان صاحب مصر.

75- الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، وكان عالي الهمة حازماً شجاعاً، كان حنفي المذهب، ولم يكن من بني أيوب حنفي سواه، كان يحب الأدب كثيراً، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين، فأحسنوا في مدحه، ابن خلكان: وفيات الأعيان: 494/3، انظر ذيل الروضتين: 152، ابن الأثير، الكامل: 471/12، البداية والنهاية: 121/13، النجوم الزاهرة: 163/6.

76- الديوان: 94.

77- ابن خلكان، وفيات الأعيان: 18/5.

78- الذهبي، تاريخ الإسلام: 413.

79- تاريخ ابن النجار: 413.

80- الديوان: 93.

81- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان: 547/7.

82- ابن كثير، البداية والنهاية: 137/13.

83- الديوان 3-4.

84- الديوان: 4-5.

85- يريد بوادي دمشق: وادي بردى حيث يجري نهر بردى من منبعه قرب الزبداني إلى دمشق. والثاني الأرض المنخفضة من الغوطة المعروفة بين أهل الغوطة بأرض الوادي.

86- الديوان: 5-6.

87- الديوان: 8.

88- الديوان: 34.

89- الديوان:سابق: 36.

90- الديوان : 36 - 37 - 38 .

91- الديوان: 43-45.

92- الديوان : 48 .

93- الديوان:ابق: 48-49.

94- الديوان : 53 .

95- الديوان:و الشيخ الرئيس ابن سينا.

96- الديوان : 11 .

97- المرجع السابق: 20.

98- الديوان: 33 .

99- المرجع السابق: 21-22.

100- الديوان: 29-30.

101- الديوان: 30-31-32.

102- انظر الأدب في بلاد الشام: 357.

103- الديوان:239.

104- الديوان : 210- 211 .

105- الديوان: 236.

106- ولد الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر سنة (576)هـ وتوفي بدمشق (635)هـ وفيات الأعيان: 79/5.

107- قال:لأشرف موسى بن الملك العادل سنة (578هـ) وتوفي (635هـ)، وفيات الأعيان:330/5-336، في مرآة الزمان:435 في حوادث سنة (626هـ): إن الملك الاشرف لما بلغه ما قال فيه ابن عُنين وكنا نرجي.. قال:- إذا لم يكن عندي منّ ولا سلوى فعند منْ ؟ وأمر بقطع لسانه، فحلف ابن عُنين أنه ما قال هذا، فقال الأشرف ما أفلت من لسانه أحد ولا بد من قطعه، فهرب إلى بلاده زرع.

108- الديوان: 132.

109- أبو محمد محمود بن مودود بن محمود البلدجي الحنفي الموصلي، وله مدرسة تعرف به كان من أبناء الترك، وصار من مشايخ

العلماء، وله دين متين وشعر حسن جيد. البـــداية والنـــــهاية: 116/13.

110- الديوان: 208.

111- المبارز إبراهيم بالمعتمد والي دمشق من خيـار الـولاة وأعفهـم وأحسنهم سيرة وأجودهم سريرة، أصله من الموصل، قـدم الشـام، فخدم فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وكان شحنة دمشق، فحمـدت سيرته، ثم صار شحنة دمشق أربعين سنة، فجرت في أيامه عجائب وغرائب، وكان كثير السـتر علـى ذوي الهيئـات...... البدايـة والنهاية:115/13.

112- عفيف الدين بن عدلان على بن عدلان بن حماد بن علي، الإمام العلامة عفيف الدين أبو الحسن الرَّبعي الموصلي النحوي المترجم ولد سنة (583هـ) تصدر بجامع الصالح بالقاهرة وكان علاّمة في الأدب.. الوافي:فيات:106/2انظر بغية الرعاة: 343 الزركشي:215. الوافي 308/:21 .

113- الديوان: 203.

114- الديوان : 220-221

115- المرجع السابق: 237.

116- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس: 392/2.

117- الديوان: 143.

118- هو سيف الدين محمد بن عروة الموصلي، وكان من خواص أصحاب الملك المعظم، وإليه ينسب مشهد ابن عروة بالجامع الأموي، توفي بدمشق سنة (620هـ) البداية والنهاية: 101/13.

119- 4-الديوان: 212.

120- الملك العزيز عماد الدين أبوالفتح عثمان بن صلاح الـدين، ولـد بالقاهرة سنة (567هـ) وكان من عقلاء بني أيوب كثيـر الخيـر كريمًا، وله علم بالحديث والفقه كان نائبا في مصر عن أبيه، واستقل بملكها بعد وفاة أبيه سنة (295هـ).

121- الملك العزيز طغتكين أخو السلطان صلاح الدين، بعثه أخوه إلـى اليمن سنة (579هـ) فملكها توفي سنة (593هـ) انظـر وفيـات الأعيان: 2/523-524.

122- الديوان: 223.

123- هو محي الدين محمد بن شرف الدين عبدا لله بن أبي عصرون تولّى أبوه القضاء بدمشق سنة 573هـ) توفي سنة (585هـ)وعمي في آخر عمره قبل موته بعشر سنين، ابن خلكـان 3/53-56.

124- الديوان: 191.

125- المرجع السابق: 193.

126- المرجع السابق: 235.

127- الديوان: 205.

128- المرجع السابق: 182-183.

129- خطيب دمشق الدولعي نسبه إلى الدولعية قرية بالموصل – جمـال الدين محمد بن زيد بن يس أبوعبدالله الثعلبي والشافعي ولـد سـنة (555هـ) وليّ الخطابه بعد عمه ضياء الدين الدولعي وطالت مدته توفي سنة (635هـ) شذرات الذهب: 174/5، انظر الـذيل علـى الروضتين: 166/6.

130- الديوان:188.

131- الديوان : 205 .

132- يظهر انه لقب ينبز به الرشيد النابلسي ستأتي ترجمته.

133- الديوان: 186.

134-متصوف كان من مقربّي الملك المعظم عيسى، انظر أبو شامة: الـــذيل علـــى الروضتين: 142: مرآة الزمان: 442/8.

135- ابن جبير: 231.

136- الديوان: 144.

137- المرجع السابق: 144.

138- الديوان:198.

139- انظر شفيق الرقب: الهجاء والنقد الاجتماعي في شعر ابن عُنـــين: 585.

140- الديوان:142.

141- الوقيذ:الشديد المرض المشرف على الموت.

142-رحلة ابن جبير: 15-24-207-209-330.

143- الرحَّبي: هو الشيخ الحكيم الإمام العالم، رضي الدين أبو الحجـــاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي من الأكابر في صناعة الطـــب مبجلاً عند الملوك وغيرهم، كان كبير النفس عـــالي الهمـــة كثيـــر التحقيق حسن السيرة محباً للخير وأهله، شديد الاجتهاد في مـــداواة المرض، طاهر اللسان، كان والده من بلدة الرحبة، وله نظـــر فـــي صناعة الطب إلاّ أن صناعة الكحل كانت أغلب عليه، وعُرف بها.

144- ابن أبي اصيبعه، عيون الانباء في طبقات الأطباء: 624.

145- الديوان: 179-180.

146-موفق الدين هو الحكيم الإمام العالم الفاضل ابن أبي الفتح الياس بن جرجس كان سيد الحكماء وأوحد العلماء اشتهر بعلم الكلام والفلسفة والطب والتنجيم. طبيب غزير المروءة خدم السلطان، صلاح الدين، وأسلم على يده وكان يحب أهل البيت. عيون الانباء فـــي طبقـــات الأطباء:603.

147- الديوان: 179.

148- المرجع السابق: 194.

149- الديوان: 133- 134.

150- المرجع السابق: 240.

151- عبد الرحمن بدر بن الحسين بن المفرج بن بكـــار، رشـــيد الـــدين النابلسي الشاعر المجيد _ مدح الناصر وأولاد العادل، وهـــو عـــم الحافظ شرف الدين يوسف بن الحسن النابلسي. توفي سنة 619هـــ ودفن بمقابر الباب الصغير فوات الوفيات: 621/1تحقيق الشيخ علي محمد معوّض والشيخ عادل أحمد عبد الجواد انظر ترجمته الـــوافي 123/18، وفيات الأعيان: 266/5، المنهل الصافي: 288/2.

152- الديوان: 185.

153- الديوان: 188.

154- أبوعلي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبـــي المجـــد المعروف بالقاضي الفاضل البيساني العسقلاني، كاتب وشاعر عاش في العصرين الفاطمي والأيوبي توفى سنة (596هـــ)- انظر وفيات الأعيان: 158/3، ابن العماد، شذرات الذهب: 324/4.

155- الديوان: 189.

156- الديوان: 219.

157- السديد بن مكي بن المسلم بن مكي بن خلف ابـــن عـــلان القيســـي الدمشقي المعدل آخر أصحاب الحافظ أبي القسم بن عساكر تـــوفي عن تسع وثمانين سنة، شذارت الذهب: 390/5.

158- الأتـــابكي، النجـــوم الزاهـــرة: 294/6، ابـــن كثيـــر، البدايـــة والنهاية:138/13، كحالة، معجم المـــؤلفين:97/11 الـــزر كلي، الأعلام: 348/7.

159- الديوان: 179.

160- المرجع السابق: 181.

161- الديوان: 134-135.

162-برهان الدين أبو الفضل سليمان أصله من مصر، وانتقل إلى الشام، وعمل في خدمة صلاح الدين حتى وفاته كان عالماً ببضاعة الكحل، انظر عيــون الأنباء، ابن أبي اصيبعة: 612.

163- الديوان: 29. .

164- المرجع السابق: 8.

165- المرجع السابق: 17 – 18.

166- المرجع السابق: 25.

167- المرجع السابق: 56.

168- الديوان: 35-36.

169- المرجع السابق: 26 أنظر الشعر العربي في بلاد الشام والجزيرة، ياســين عايش.

170- الديوان: 144.

171- الديوان: 107.

172- الديوان، المقدمة:8.

173- الديوان: 79.

174- المرجع السابق: 33.

175- المرجع السابق: 68-69.

176- الديوان: 72.

177- المرجع السابق: 82.

178- الديوان: 83.

179- المرجع السابق: 83.

180- المرجع السابق: 77.

181- الديوان: 84.

182- الديوان: 88- 90.

183- الديوان: 59-60.

184- الديوان: 60-61.

185- المرجع السابق: 61.

186- الديوان: 60-61.

187- المرجع السابق: 62.

188- الديوان: 62.

189- النويهي:338.

190- الديوان: 62-63.

191- الديوان: 63.

192- الديوان: 64-66.

193- الديوان: 67.

194- المرجع السابق: 140.

195- الديوان: 140-141.

196- لديوان: 96-97.

197- الديوان: 98.

198- الديوان: 92.

199- المرجع السابق: 120-121.

200- الديوان: 103.

201- الديوان: 95.

202- المرجع السابق: 121-122 .

203- كان ذلك سبباً في موت القاضي إذ أن ما أمر بلبسه لم يكن من ثياب القضاة، فعدّه إهانة وتحقيراً له وانصرف إلى داره ومرض ومات كمداً وكان ذلك في سنة 617 هـ انظر شذرات الذهب:73/5 ومرآة الزمان: 397/8.

204- الديوان: 93.

205- الديوان: 116.

206- المرجع: السابق 92.

207-هو جمال الدين عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي، تولى الوزارة للملك المعظم، وتوفي بدمشق سنة (625) ودفن بتربته بقاسيون شذرات الذهب: 117/5.

208-الديوان: 147.

209-المرجع السابق: 148..

210-الديوان: 106-107.

211-وردت ترجمته في دراسة الهجاء والنقد الاجتماعي:67.

212- الديوان: 134 - 135.

213-الديوان: 104.

214-المرجع السابق: 102.

215-انظر رسالة ماجستير، شعر الرياضة البدنية والذهنية في العصر العباسي الطالب: موفق جاسم العيس جامعة دمشق.

216-الديوان:49.

217-الديوان : 170 .

218-الديوان: 172.

219-الديوان: 150

220-الورشان: طائر من الفصيلة الحمامية (جمعه) وراشين.

221-الديوان: 151.

222- الديوان: 151.

223-المرجع السابق: 164.

224-الديوان: 164-165.

225-المرجع السابق: 96-97.

226-الجرجاني ، علي بن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه :48 .

227-محمود السمرة، القاضي الجرجاني الأديب الناقد: بيروت 182.

228- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القــرن الثامن الهجري: ص32.

229- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:ق121/3.

230- الديوان: 12-13.

231- الديوان: 13- 14.

232- الديوان: 40 - 41.

233- العمدة: 123/2.

234- الديوان: 43.

235- الديوان: 59.

236- المرجع السابق: 64.

237- المرجع السابق:72.

238- المرجع السابق: 80.

239- المرجع السابق:86.

240- المرجع السابق: 29.

241- الديوان: 65-66.

242- انظر يوسف بكار:8.

243- الديوان: 65-67.

244- الديوان: 10-11.

245- المرجع السابق: 12.

246- الديوان: 203-204.

247- المرجع السابق: 137.

248- المرجع السابق: 189.

249- الديوان: 181-182.

250- المرجع السابق: 184.

251- المرجع السابق: 210-211.
252- عزالدين إسماعيل، في الشعر العباسي: 387.
253- الديوان: 179-184
254- الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه: 24.
255- الديوان: 49.
256- المرجع السابق: 57-58.
257- الديوان: 70.
258- المرجع السابق: 81.
259- الديوان: 16-17.
260- الديوان: 5.
261- المرجع السابق: 7.
262- المرجع السابق: 12.
263- المرجع السابق: 21.
264- المرجع السابق: 215.
265- الديوان. 225 .
266- قمامة: الكنيسة العظيمة المشهورة بالقدس
267- الديوان المقدمة: 26.
268- المرجع السابق: 103.
269- المرجع السابق: 111.
270- المرجع السابق: 119.
271- المرجع السابق: 148.
272- المرجع السابق: 212.
273- الديوان: 237.
274- المرجع السابق: 133-134.
275- المرجع السابق: 135.
276- المرجع السابق: 132.

277- الديوان: 224.

278- المرجع السابق: 110 -111.

279- الديوان :197 .

280- المرجع السابق : 185 .

281- الديوان: 187 ، 188 ، 189 ، 191 ، 193 ، 194 ، 196، 207 .

282- الرقب، الهجاء والنقد الاجتماعي في شعر ابن عُنين:588.

283- الديوان: 135.

284- المرجع السابق: 199 .

285- المرجع السابق: 214.

286- المرجع السابق: 214.

287- المرجع السابق: 203-204.

288- الديوان: 147.

289- المرجع السابق: 114.

290- الديوان: 117.

291- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 341/2.

292- الحلبي:32

293- الديوان: 116.

294-سورة الرحمن: 25-26.

295- الديوان: 116.

296- سورة الشورى: (52).

297- سورة النبأ:(40).

298- سورة الحشر: (18).

299- الديوان:131.

300- سورة البقرة: (186).

301- الديوان: 64.

302- سورة الحج:(46) .

303- الديوان: 217 .

304- المرجع السابق: 57.

305- المرجع السابق: 148.

306- المرجع السابق: 144 .

307- المرجع السابق: 80.

308- المرجع السابق: 21.

309- المرجع السابق: 194.

310- القيرواني، العمدة:36/2.

311- الديوان: 197-198.

312- جميل بثينة ديوانه:143.

313- الديوان:ص14.

314- ابن حيوس: 315/1 انظر الاقتباس والتضمين في شعر ابن عُنين: 123.

315- الديوان: 231.

316- معلقة امريء القيس8.

317- الغذامي، الخطيئة والتكفير: 322.

318- الديوان:140-141.

319- ديوان الأعشى 130، صدر البيت " غراء فرعاُء مصــقولٌ عوارضـــها "
تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجلُ.

320- عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: 311.

321- الديوان: 106.

322- المرجع السابق: 108.

323- المرجع السابق: 109.

324- الديوان: 15.

325- المرجع السابق: 16.

326- المرجع السابق: 20.

327- انظر الديوان: 133، 141، 143، 231.

328- المرجع السابق: 39.

329- المرجع السابق: 40.

330- الديوان: 137.

331- المرجع السابق: 181.

332- انظر الديوان: 142، 203، 190، 221، 238.

333- المرجع السابق: 240 للاستزادة انظر:148، 215، 141، 144.

334- الديوان: 181 -182.

335- المرجع السابق: 235.

336- المرجع السابق: 233.

337- الديوان: 128-129.

338- الديوان: 7.

339- المرجع السابق: 9.

340- المرجع السابق: 10.

341- الديوان: 205.

342- المرجع السابق: 209.

343- المرجع السابق: 182.

344- الديوان: 184.

345- المرجع السابق: 189.

346- المرجع السابق: 5.

347- المرجع السابق: 16.

348- الديوان: 55.

349- المرجع السابق: 43.

350- المرجع السابق: 110.

351- المرجع السابق: 20.

352- المرجع السابق: 26.

353- الديوان: 36.

354- المرجع السابق: 41.

355- المرجع السابق: 207.

356- الرقب، الشعر العربي في بلاد الشام: 326.

357- الديوان: 57.

358- الديوان: 143.

359- الديوان: 19.

360- المرجع السابق: 19، جبال الثلج: ما يسمى اليوم بجبل الشيخ وهو جبل حرمون وسنير.

361- الديوان: 209 - 210.

362- المرجع السابق: 229.

قائمة المراجع

ابن الأثير، ضياء الدين(1962). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ت أحمد الجوفي وبدوي طبانة، القاهرة.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن المتوفى سنة (630 هـ) (1932). **التاريخ الباهر بالدولة الأتابكية بالموصل**، ت عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة مكتبة المثنى، بغداد.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني(1402 هـ - 1982). **الكامل في التاريخ**، المتوفى (630 هـ)، دار صادر، بيروت.

أسامة بن منقذ ، مؤيد الدولة أبو المظفر (1930). **الاعتبار** ، مطبعة جامعة برنستون تحرير فيليب حتّى، الولايات المتحدة .

إسماعيل عز الدين (1980م.)، **في الشعر العباسي الرؤية والفن**، دار المعارف، ط2.

ابن أبي اصيبعة، موفق الدين أبو العباس (1419هـ -1998م). المتوفى 668 هـ، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ت، محمد باسل عيون السوّد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

الأعشى، ميمون بن قيس (1419هـ - 1998م). **ديوانه**،ت مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 .

امرؤ القيس، حجر بن الحارث بن عمرو (1389هـ -1969م). **ديوانه** ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ط4 .

الأهواني، عبد العزيز(1962م). **ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار**، مكتبة الانجلو المصرية.

باشا، عمر موسى (1964م.) **الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، المكتبة العباسية ط2.

البغدادي، إسماعيل باشا(1955). **هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، وكالة المعارف، استانبول.

البغدادي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن الفوطي(1932). **الحـــــــوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، ت مصطفى جواد، المكتبة العربية، بغداد.

بدوي، أحمد أحمد، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ط2.

بكار، يوسف(1979م). **بناء القصيدة العربية** ، دار الثقافة للطباعة النشــــــــر، القاهرة.

الاتابكي، جمال الدين أبو الحسن يوسف بـــــن تغري بردي(1355هـ -1936م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقــاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة.

رحلته،ير، أبو الحسين محمد بن أحمـد الأندلسي(1379هـ - 1959م). دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت.

الجرجاني، علـــي بن عبد العزيز، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، ت، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط3.

جميل بثينة، جميـــــــــل بن عبد الله بن معمر من بني عُذرة، **ديوانه**، ت، حسين نّصار،مكتبة مصر، دار مصر للطباعة.

ابن الجوزي، شمس الديـــــــــــن أبو المظفر يوسف(1372هـ - 1952م). **مـــــــرآة الزمان في تاريخ الأعيان المتوفى** (654هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطـــــي (1067هـ -1107هـ). **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، دار الفكـــــر بإشراف هيئة البحث والدراسات، بيروت ، لبنان 1414هـ -1994م .

حمزة، عبداللطيف (1949م). أدب الحروب الصليبية، دار الفكر العربـــي ط2.

الحويطات، مفلح(1999م). **شعر الهجاء في مصر والشام زمـــن الحروب الصليبية**، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة.

الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد(1419هـ - 1998م). المتوفـــــــى

1089هـ، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ت، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط1.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (608هـ - 681هـ). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ت، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي(1420هـ -1999م). **العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب المصرية، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

الدلجي، شهاب الملة والدين، أحمد بن علي(1322هـ). **الفلاكة والمفلوكون**، مطبعة الشعب.

الذهبي، الحافظ (1386هـ -1966م). **العبر في خبر من غبر**، ت صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت،

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، المتوفى 748هـ، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ت عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(1417هـ 1996م). المتوفى 748هـ، **سير أعلام النبلاء**، ت شعيب الارناؤوط ونذير حمدان، مؤسسة الرسالة، ط11.

الذهبي ،شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، **الإشارة إلى وفيات المنتقى من تاريخ الإسلام** ، ت إبراهيم صالح ، دار ابن الأثير ، بيروت .

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **الإعلام بوفيات الأعلام**، ت مصطفى بن علي وربيع بن أبي بكر عبد الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية.

الذهبي أبو عبد الله شمس الدين(1375هـ 1955م). المتوفى 748هـ، تذكرة الحفاظ، دائرة المعارف العثمانية، بحيدر أباد، الدكن، الهند.

ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن المتوفى 456هـ، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، ت محمد عبد القادر أحمد عطا، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الرقب،شفيق (1993م). **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، دار صفاء للطباعة والنشر، عمان.

الرقب، شفيق(2001م). **بلاد الشام في رحلة ابن جبير**، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، م 28، عدد 2.

الرقب، شفيق(1998م). **شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة الثانية والعشرون، العدد55.

الرقب، شفيق(2002 م). **الهجاء والنقد الاجتماعي في شعر ابن عُنين**، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، م 29، ع 3.الجامعة الأردنية.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (1422هـ -2002م). المتوفى(911هـ)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ت، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2 1979م.

سلام، محمد زغلول (1997). **الأدب في العصر الأيوبي**، دار المعارف الإسكندرية.

السمرة، محمود (1966م). **القاضي الجرجاني الأديب الناقد**، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ط1.

ابن شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل(1422هـ 2002م). **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**، . المتوفى 665هـ، ت إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد على بيضون دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1.

ابن شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ت، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت ط1.

ابن شداد، بهاء الدين يوسف (1964م). المتوفى (632هـ)، **النوادر السلطانيـــــة والمحاسن اليوسفية**، ت جمال الدين الشيّال، الدار المصرية، القاهــــرة، ط1.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(1420هـ 2000م).المتوفـــــى (764هـ) **الوافي بالوفيات**، ت أحمد الارناؤوط وركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان ط1.

ابن طولون، شمــــــس الديـــن محمد بن علي (1348هـ). المتوفى (953هـ)، **المعزة فيما قيل في المــــــــزة**، مكتبة القدسي، دمشق، مطبعة الترقي.

عباس، إحسان (1971م). **تاريـــخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى الثامن من الهجري**، بيروت، ط1.

عباس، إحسان (1998م). **تـــاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيوبيين** (490-650) مطبعة الجامعة الأردنية، عمان.

عبد المهدي، عبد الجليل (1409هـ 1989م). **بيـــت المقدس في أدب الحروب الصليبية**، دار النشر والتوزيع، الجامعة الأردنية.

عايش، ياسين يوسف (1993م). **الشعر فـــــي بلاد الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، مؤسسة الرسالة دار البشير بيروت، ط1.

العسقلاني، الحافـــــــــظ أحمد بن علي بن حجر (1423هـ - 2002م). **لسان الميزان**، 773هـ -852هـ -إخراج وطباعة سلمان عبد الفتاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1.

ابن عنين، ديوانه،، شـــــــرف الدين أبو المحاسن(1895م-1959م).**ديوانه**، ت خليل مردم بيك دار صادر بيروت.

علي، محمد كــــرد(1403هـ 1982م). **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق ط3.

ابن الغزي، شمـــــــــس الدين أبو المعالي محمد بــــن عبدالرحمن(1411هـ-1990م).(1167هـ) **ديوان الإسلام**، ت سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ط1.

أبو الفداء، الحافظ ابن كثير الدمشقي(1982م). المتوفى 774هـ، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ط4.

ابن القلانسي، حمزة بن أسد(1983 م). **تاريخ دمشق**، ت سهيل زكار دار حسان دمشق، ط1.

كحالة، عمر رضا (1387هـ 1959م). **معجم المؤلفين**، مطبعة الترقي، دمشق.

الغذامي، عبد الله بن محمد(1405هـ 1985م). **الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية**، جده السعودية، ط1.

الكتيبي، محمد بن شاكر بن أحمد، المتوفى (764هـ)، **فوات الوفيات**، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

المقريزي، أحمد بن علي(1995م). **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ت محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1.

المقريزي، تقي الدين(1411هـ -1991م). **المقفى الكبير**، ت محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط1.

المنذري، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم(1401هـ 1981م). **التكملة لوفيات النقلة** (581-656هـ) ت بشار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط2.

ابن نقطة، الحافظ أبو بكر بن عبد الغني(1408 -1987م). **تكملة الإكمال**، 579هـ - 629هـ، ت عبد القيوم عبد رب النبي، ط1.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (1992م). **نهاية الأرب في فنون الأدب** (677هـ -733هـ) ت محمد ضياء الدين الريس، ت، محمد مصطفى زيادة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

النويهي، محمد(1969م). **ثقافة الناقد الأدبي**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2.

خالد الهزايمة(1997م). **ظاهرتا التضمين والاقتباس في شعر ابن عنين**، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، م24، عدد 1.الجامعة الأردنية.

النعيمي، عبدالقادر بن محمد(1948). **الدارس في تاريخ المدارس**، المتوفى 927هـ، ت جعفر الحسيني، مطبعة الترقي، دمشق.

ابن واصل، جمـــــال الدين محمد بن سالم، المتوفى 697هــ، **مفرّج الكـــــروب في أخبـــــــار بني أيوب**، ت جمال الدين الشيّال، نشر لأول مرة عن مخطوطات كمبردج وباريس و استانبول، جامعة الإسكندرية.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(1417هــ -1996م). المتوفـــى 749هــ **تاريخ ابن الوردي** دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

ياقوت الحموي، الإمام شهاب الدين أبو عبد الله(1993م). **معجم الأدبــــاء وإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، ت، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1.

ياقوت الحموي، الإمـــام شهاب الدين أبو عبد الله(1979م). **معجم البلدان**، دار صادر بيروت.

اليافعي، أبو عبد الله بن أسعد بن علي عفيف الدين(1417 1997م). المتوفـــــــى 768هــ، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حــوادث الزمان**، دار الكتب العلمية بيروت، ط1.

الزركلي، خير الدين(1345هــ 1927م)، **الأعلام قاموس تراجم الرجـــال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهلية والإسلام والعصر الحاضر**، المطبعـــــة العربية ط2.

شوقي ضيــــــف(1990م). **عصر الدول والإمارات مصر والشام**، دار المعـــارف القاهرة ط1.

غوانمة، يوسف حسن درويش(1980). **إمارة الكرك الأيوبية**، منشورات بلديـــة الكرك.